ربي، كيف عصيتك؟!

الجزء الرابع: ما المُقابل لترك المعاصي؟

كتابة: الأخ/ عبد السِتّير

التدقيق اللغوي: هشام عبده الروبي؛ عبد الرحمن غريب علي.

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الكتاب يجوز مشاركته أو نسخه لمنفعة المسلمين بالعلم، ولكن ليس للتربح الشخصي. إذا أراد أحد تنقيته أو تلخيصه وإعادة نشره فلا مانع عندي ولكن ليتق الله.

فهرس الجزء الرابع

فهرس الجزء الرابع.....2
4. ما المقابل لترك المعاصي؟ 3
معرفة أنك تتخلى عن المعاصي مقابل هذا: 5
بالورع يبلغ العبد منزلة العُبَّاد.....18
قد يصبح المرء مستجاب الدعوة.....18
يمنح الله العبد الفراسة 22
بقاء فطرة المرء سليمة.....23
ثقة في النفس والاطمئنان من بطش الناس 23
العون من الله.....24
عدم إهلاك الله للصالحين، بل ومع تمكينهم في الأرض 43
انصباب الرزق صبًّا على التقي 49
تحقيق الشفاعة في المُحسنين.....50
تجاوز ربنا عن سيئ الأعمال يوم القيامة، بل وقد يُبدِلهن حسنات!.....53
الطمأنينة والبشرى في شتى مراحل الآخرة 55
مرتبة خاصة للنساء دون الرجال.....64

4. ما المقابل لترك المعاصي؟

قد تكلمنا عن تبعات المعاصي وآثارها، ولكن هناك جانب آخر لارتكاب المعصية، وهو فوات الخير من الله، وهذا بالطبع يختلف عن وقوع عقوبة يكرهها العاصي. وفوات الخير يعني فوات ما ينفع الإنسان، وهو ما يشمله مضمون حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ"[1]. فنستطيع أن نقول إن المعصية لها صدًى مزدوج: أولًا وقوع العقوبة، وثانيًا فوات الخير. وللتوضيح، فإن الذي لم يقع في المعصية ولم يُقبل على العمل الصالح ليس له عقابٌ ولا يُشترط أن يُكرمه الله بالخير –وذلك لمن لم يخطر بباله المعصية ومن ثمَّ لم يحتج جهدًا للإعراض عن المعصية–.

لكن بخلاف هذا، فإن المرء الذي خطر بباله المعصية، وأزَّه الشيطان أزًّا، وألحَّت عليه نفسه إلحاحًا، ثم جاهد نفسه فلم يعملها، فهذا ليس فقط يتفادى عقاب الله، بل إن الله يُكرمه بأن يعطيه مكافأة على ذلك، مثل ما سيتم ذكره في هذا الباب إن شاء الله. وربما يندرج أيضًا في الذين ينالون المكافأة من الله مع تفادي عقابه هو من يقع في المعصية ولكن سريعًا تدارك ذلك الخطأ وعادله بعمل صالح للتكفير. وذلك كان يتجلى بوضوح في نهج سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فكان يعمل لكل سيئةٍ عملًا صالحًا حتى أعرض عنه الشيطان –بأن يسلك طريقًا غير طريق سيدنا عمر رضي الله عنه، كما نبأه الرسول صلى الله عليه وسلم–، كي لا يعينه الشيطان بنفسه على العمل الصالح!

وربما هذا النهج هو الذي جلب على سيدنا عمر (رضي الله عنه) المكافآت من الله، وكراماته معروفة مثل أن رأيه كثيرًا ما وافق حكم الله في آيات نزلت بعد ذلك على رسول الله (صلى الله عليه وسلم). ومنها أنه بفراسته أدرك المنافق الذي في عُمَّاله عندما كان خليفة المسلمين، وتفاصيل الواقعة هي أن سيدنا عمر سأل سيدنا حذيفة (وهو صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أنبأه بأسماء المنافقين): أفي عُمَّالي أحد من المنافقين؟ قال: نعم واحد؛ قال: من هو؟ قال: لا أذكره (أي لا يبوح باسمه فيكشف بعضًا من سر رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ثم قال حذيفة: فعَزَلَه كأنما دُل عليه[2] (أي أن سيدنا عمر قد استنتج من هو المنافق فأبعده).

ومن تلك الكرامات أن الله قد أنطق على لسانه بالمناورة الحربية التي قادت المسلمين إلى النصر، وذلك عندما كان سيدنا عمر (رضي الله عنه) أمير المؤمنين وأرسل جيشًا لفتح فَسا

---

[1] مسند أحمد 21996.

[2] أسد الغابة لابن الأثير الجزري (ط العلمية) 706/1.

وَدَارَابْجِرْدَ. وبالرغم من أن الجيس كان في مكانٍ بعيدٍ فإن الله أوصل نصيحة سيدنا عمر إليهم (فتلك كرامتين على الأقل وليست كرامة واحدة)، حين صعد المنبر ليخطب الجمعة فنصح سارية (وهو اسم قائد ذلك الجيش) أن يلزم الجبل كي لا ينهزم. جاء في البداية والنهاية: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى الصَّلاةِ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ثُمَّ صَاحَ: يَا سَارِيَةُ بْنَ زُنَيْمٍ، الْجَبَلَ! يَا سَارِيَةُ بْنَ زُنَيْمٍ، الْجَبَلَ! ظَلَمَ مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ الْغَنَمَ. ثُمَّ خَطَبَ حَتَّى فَرَغَ، فَجَاءَ كِتَابُ سَارِيَةَ إِلَى عُمَرَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَتَحَ عَلَيْنَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَاعَةَ كَذَا وَكَذَا (لِتِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا عُمَرُ فَتَكَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ)، قَالَ سَارِيَةُ: فَسَمِعْتُ صَوْتًا: يَا سَارِيَةُ بْنَ زُنَيْمٍ، الْجَبَلَ! يَا سَارِيَةُ بْنَ زُنَيْمٍ، الْجَبَلَ! ظَلَمَ مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ الْغَنَمَ. فَعَلَوْتُ بِأَصْحَابِيَ الْجَبَلَ، وَنَحْنُ قَبْلَ ذَلِكَ فِي بَطْنِ وَادٍ وَنَحْنُ مُحَاصِرُو الْعَدُوِّ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا. فَقِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: مَا ذَلِكَ الْكَلامُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَلْقَيْتُ لَهُ بَالًا، شَيْءٌ أُلْقِيَ عَلَى لِسَانِي[1].

والشاهد هو أنه كان لسيدنا عمر كرامات، وقد يكون منهجه في اتباع السيئة بالحسنة إحدى الأسباب التي جعلته مستحقًّا لمثل تلك الكرامات من الله. وتشديدًا على جوهر المُقدِّمة، فإن المعصية ليس أثرها مزدوجًا، بل رُباعيًّا، فللمعصية فوات التميز (متمثلة في الكرامات والنعم) وجلبٌ للعقاب، وذلك في مرحلتي الدنيا والآخرة. وللتوضيح بضرب الأمثلة، فإن فوات الميزة في الدنيا تكون بفوات صفة الفراسة مثلًا التي تكون للمؤمن، وفوات الميزة في الآخرة يكون مثلًا بعدم الظل يوم البعث أو عدم الطمأنينة في الحشر وربما فوات الجنة كليًّا.

وعلى الصعيد الآخر، فإن العقاب في الدنيا يكون مثل أن ينزل على المرء بلاء في ماله أو صحته، والعقاب في الآخرة يكون بالعذاب في القبر مثلًا أو دخول جهنم حتى، أو في الأقل المقادير فإنه سيُحاسب عليها وإن غفر الله له بعدها. فيجب أن يُدرك المرء الفرق في أن فوات الخير خسارة، وإبداله بالعقاب خسارة أخرى، فالذي لا يدخل الجنة قد خسر إذ إن السابقين دخلوا وهو لم يدخل، ولو كان مُتاحًا أن يعيش مُعافِرًا مُصابًا في الأرض كما كان قبل قيام الساعة لكانت خسارة واحدة، ولكن من لا يدخل الجنة في الآخرة يدخل النار بدلًا منها، وهي الخسارة الثانية.

وقد ذكر ابن القيم (رحمه الله) كثيرًا من المكاسب من ترك المعاصي قائلًا: سُبْحَانَ الله رب الْعَالمين، لَو لم يكن فِي ترك الذُّنُوب والمعاصي إلا إِقَامَة الْمُرُوءَة، وصون الْعرض، وَحفظ الجاه، وصيانة المَال الَّذِي جعله الله قوامًا لمصَالح الدُّنْيَا وَالآخِرَة، ومحبة الْخلق، وَجوَار القَوْل بَينهم [أي أُلفة كلامه معهم وأخذه في الاعتبار، والله أعلم]، وَصَلاح المعاش، وراحة الْبدن، وَقُوَّة الْقلب، وَطيب النَّفس، ونعيم الْقلب، وانشراح الصَّدْر، والأمن من مخاوف الْفُسَّاق والفجار، وَقلة الْهم وَالْغَم والحزن، وَعز النَّفس عَن احْتِمَال الذل، وصون نور الْقلب أَن تطفئه ظلمَة الْمعْصِيَة، وَحُصُول الْمخرج لَهُ مِمَّا ضَاقَ على الْفُسَّاق والفجار، وتيسر الرزق عَلَيْهِ من حَيْثُ لا يحْتَسب، وتيسير مَا عسر على أَرْبَاب

[1] البداية والنهاية لابن كثير 175/10.

الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطَّاعَات عَلَيْهِ، وتيسير الْعلم، وَالثنَاء الْحسن فِي النَّاس، وَكَثْرَة الدُّعَاء لَهُ، والحلاوة الَّتِي يكتسبها وَجهه، والمهابة الَّتِي تلقى لَهُ فِي قُلُوب النَّاس، وانتصارهم وحميتهم لَهُ إِذا أوذي وظلم، وذبهم عَن عرضه إِذا اغتابه مغتاب، وَسُرْعَة إِجَابَة دُعَائِهِ، وَزَوَال الوحشة الَّتِي بَينه وَبَين الله، وَقرب الْمَلَائِكَة مِنْهُ وَبعد شياطين الإِنْس وَالْجِنّ مِنْهُ، وتنافس النَّاس على خدمته وَقَضَاء حَوَائِجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وَعدم خَوفه من الْمَوْت، بل يفرح بِهِ لقدومه على ربه ولقائه لَهُ ومصيره إِلَيْهِ، وَصغر الدُّنْيَا فِي قلبه، وَكبر الآخِرَة عِنْده وحرصه على المُلك الْكَبِير والفوز الْعَظِيم فِيهَا، وذوق حلاوة الطَّاعَة، وَوجد حلاوة الإِيمَان، وَدُعَاء حَملَة الْعَرْش وَمن حوله من الْمَلَائِكَة لَهُ، وَفَرح الْكَاتِبين بِهِ ودعائهم لَهُ كل وَقت، وَالزِّيَادَة فِي عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وَحُصُول محبَّة الله لَهُ وإقباله عَلَيْهِ، وفرحه بتوبته، وَهَكَذَا يجازيه بفرح وسرور لا نِسْبَة لَهُ إِلَى فرحه وسروره بالمعصية بِوَجْه من الْوُجُوه. فَهَذِهِ بعض آثَار ترك الْمعاصِي فِي الدُّنْيَا، فَإِذا مَاتَ تَلَقَّتْهُ الْمَلَائِكَة بالبشرى من ربه بِالْجنَّةِ وَبِأَنَّهُ لا خوف عَلَيْهِ وَلا حزن، وينتقل من سجن الدُّنْيَا وضيقها إِلَى رَوْضَة من رياض الْجنَّة ينعم فِيهَا إِلَى يَوْم الْقِيَامَة، فَإِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة كَانَ النَّاس فِي الْحر والعرق وَهُوَ فِي ظلّ الْعَرْش، فَإِذا انصرفوا من بَين يَدي الله أَخذ بِهِ ذَات الْيَمين مَعَ أوليائه الْمُتَّقِينَ وَحزبه المفلحين، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو فضل عَظِيم[1].

فكلامه يشمل عناوين هذا الباب، ولكني أردت الاستفاضة في بعض النقاط:

معرفة أنك تتخلى عن المعاصي مقابل هذا:

وعد الله المتقين أن يكون آخر طريقهم هو الفوز بالجنة، وهو الجزاء الأعظم المؤجل لمن آمن بالله ثم صَبَر على طاعته وعن معصيته. قال تعالى {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس 26] (قَتَرٌ أي غبار أو سواد)، فيكون الثواب بإفاضة بالغة. وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) شمولًا عن قدرها "وَاللَّهِ، مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ (وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ) فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ"[2] (فِي الْيَمِّ أي في البحر).

وقد حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الاجتهاد في العمل قائلًا "أَلا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، فِي مَقَامٍ أَبَدًا، فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ، فِي دُورٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ" قَالُوا (الصحابة): نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ"، ثُمَّ ذَكَرَ

[1] الفوائد لابن القيم 151-152.

[2] صحيح مسلم 5101.

الْجِهَادَ وَحَضَّ عَلَيْهِ[1] (مُشَمِّرٌ أي مجتهد ساعٍ لها بغاية السعي طالبٌ لها؛ لا خَطَرَ لَهَا أي لا مثيل لها؛ مُطَّرِدٌ أي يجري عليها؛ حَبْرَةٍ أي نعمة وسعة عيش عظيمة؛ وَنَضْرَةٍ هو حسن الوجه).

والعمل هو برهان التصديق بما أنزل الله، فيكون إثبات القول بالإيمان عن طريق العمل الصالح. ويؤيد هذا أن الله يقرن ذكر العمل الصالح مع الإيمان في كثير من الآيات، مثل {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء 122].

وقال تعالى {وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الزمر 33-35]. فالحمد لله، هذا وعدٌ من الله تَطمئن به القلوب. الجائزة هي أن ينال المرء ما يشاء، ويُكفِّر الله عنه أسوأ ما عمل، بل ويجزيه بأحسن ما عمل! فما هذا الكرم؟! سبحان الله. وما هو الشرط؟ أن يُصَدِّق بما جاء من الحق (بقلبه، ويثبت ذلك بعمله). فأبشر أيها المُصَدِّق، إنما عليك الاجتهاد وسيتولى الله مكافأتك.

ولنتداول بعد مواصفات الجنة ونعيمها حتى نلامس ما نتكلم عنه. فعن أبوابها جاء أن لها ثمانية أبواب، وكل باب له أناسه يدخلون منه، بحسب صنف أعمالهم. فمثلًا، للصائم ما نبأه به الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ؛ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ"[2].

وقد ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعضًا من تلك الأبواب قائلًا "مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ "نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ"[3] (زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي أنفق اثنين من أي صنف من أصناف المال في طلب ثواب الله؛ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ هو استفسار عن أن من دُعي من بابٍ لا يستلزم أن يُدعى من بابٍ آخر، وهو تمهيد للسؤال عن مَن الذي يُدعى من جميعهن).

---

[1] سنن ابن ماجه 4323.

[2] صحيح مسلم 1947.

[3] صحيح البخاري 1764.

وعن بناء الجنة، قال صلى الله عليه وسلم "لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلاطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لا يَمُوتُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُمْ"[1]. وَمِلاطُهَا أي مونتها، وهو ما يُوضع بين الأحجار؛ الأَذْفَرُ أي طيب الريح؛ وَحَصْبَاؤُهَا أي الحصى.

وهيئة أوائل الفائزين بها كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لا يَبُولُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ وَلا يَتْفِلُونَ وَلا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمْ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمْ الأَلُوَّةُ الأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ، وَأَزْوَاجُهُمْ الْحُورُ الْعِينُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ: سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ"[2] (دُرِّيٍّ أي مُتوهِّج شديد الإضاءة؛ وَرَشْحُهُمْ أي عرقهم؛ وَمَجَامِرُهُمْ الأَلُوَّةُ الأَنْجُوجُ أي بخورهم من ذاك النوع من البخور ذات الريحة الطيبة).

أما الأجواء والبيئة في الجنة، فقد قال تعالى {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [الإنسان 13–14]. الْأَرَائِكِ هي جمع أريكة، وهي السرر في الحجال، والحجال هو ساتر كالقُبة يُزين بالثياب والستور للعروس؛ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا أي ليس فيها شمس حتى يؤذيهم حَرُّها، ولا البرد الشديد؛ وَدَانِيَةً أي قريبة؛ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا أي أُدنيت بحيث أن المرء يتناول الثمر في أي وضع: قائمًا أو جالسًا أو مضطجعًا.

ونبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}"[3] (لا يَقْطَعُهَا أي لا يجتاز عرضها). وهناك رياحٌ طيبةٌ كما بشرنا (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا"[4].

وملبس الناس فيها {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان 21]. عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ أي فوقهم أفضل أنواع الثياب، المائلة إلى اللون الأخضر، وهي من الحرير، فالسندس هو الديباج النفيس الناعم الرقيق والشفاف له بريق أخّاذ، وأما الإستبرق فهة ديباج سميك لا يصف ولا يشف، وله بريق شديد،

---

[1] سنن الترمذي 2449.

[2] صحيح البخاري 3080.

[3] صحيح البخاري 4502.

[4] صحيح مسلم 5061.

والديباج نوع من الحرير المنسوج. وفي آية أخرى جاء أيضًا {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [فاطر 33].

ويروي لنا سيدنا البراء بن عازب (رضي الله عنه) قائلًا: أُهْدِيَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَقَةٌ مِنْ حَرِيرٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَعْجَبُونَ مِنْ حُسْنِهَا وَلِينِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَتَعْجَبُونَ مِنْهَا؟" قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا"[1] (سَرَقَةٌ أي قطعة). وقد سأل سائل سؤالًا عجيبًا، قائلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا عَنْ ثِيَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، خَلْقًا تُخْلَقُ أَمْ نَسْجًا تُنْسَجُ؟ فردّ (صلى الله عليه وسلم) "لَا، بَلْ تَشَقَّقُ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ" (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)[2]. فتخيل أخي مدى جودة هذه الثياب التي تخرج من الثمار، ومدى فرحة المرء بهذه الهديَّة!

ومن بيوتهم يكون لهم، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، مثل هذا "إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ الْمُؤْمِنُ، فَلا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا"[3] (فَلا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا أي لا يرى الجماعة من أهله الجماعة الأخرى بسبب بُعدهم عن بعض، وهي دلالة على سعة مساحة البيت بالرغم من كثرة أهله من أزواجه). والغُرَف في منازل السُكان فريدة، ليس كمثلها في الدنيا، فكما قال (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا"، فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ"[4].

وجاء عن مجالسهم {عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ} [الواقعة 15-16] (سُرُرٍ مَّوْضُونَة، وهي جمع سرير، مصفوفة منسوجة بالذهب والجواهر، مُحكَمة). وفي وصف آخر جاء {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30) وَمَاء مَّسْكُوبٍ} [الواقعة 27-31] (مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ أي ما أدرانا بما هم فيه وما أُعد لهم من خير ونعيم، وأصحاب اليمين هم الذين أُعطوا كتاب أعمالهم في يمينهم؛ سِدْرٍ مَّخْضُودٍ أي ثمر السدر لا شوك فيه؛ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ أي -بحسب أغلب أقوال المفسرين- أنه شجر الموز المتراكم المصفوف). فأصحاب الجنة في مقاعد مُزخرفة ومُريحة، مُحاطون بأشجار وفاكهة، تحت ظل الأشجار، وتنصَبُ من جانبهم ماء الأنهار والعيون التي تسرح لأن ليس لها ممر في الأرض.

---

[1] صحيح البخاري 6149.

[2] مسند أحمد 6799.

[3] صحيح مسلم 5070.

[4] سنن الترمذي 2450.

وجاء عن الرفاهية فيها {وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا} [الإنسان 15-19]. قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا أي الطائفين بهن وضعوا فيهن من الشراب القدر الذي يُروي الشارب بدقة فائقة، بلا زيادة ولا نقصان، فلا يشعر المرء بعدها أنه يحتاج المزيد ولا يتبقى منها فائض عليه؛ كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا أي يُمزج الخمر بالزنجبيل، وهو نبات ذو رائحة عطرية طيبة، والعرب كانوا يستلذون الشراب الممزوج به، فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار؛ مَّنثُورًا أي منتشرًا، وفيه إشارة على كثرتهم.

وعن شرابها جاء {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد 15]. غَيْرِ آسِنٍ أي لا يتغير ريحه فينتن؛ مَاءً حَمِيمًا أي ماء قد بلغ منتهى الحرارة.

وقال تعالى أيضًا {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ} [الواقعة 17-19]. وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ أي أكواب جميلة مملوءة مما خرج بكثرة من عين في الأرض، وفي هذه الحالة هو الخمر؛ لَا يُصَدَّعُونَ أي لا يصيبهم الصداع من الشراب؛ وَلَا يُنزِفُونَ: النزف هو إذهاب الشيء بالتدريج، إشارة إلى ذهاب العقل مع خمر الدنيا، والمعنى هنا أن خمر الجنة لا يُسبب السُكر، فلا تذهب عقولهم بالشراب. ولون الخمر أبيض جميل {يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ} [الصافات 45-47] (غَوْلٌ هو إهلاك الشيء على غفلة، وبالنسبة إلى خمر الدنيا فهو يُهلك الجسد بالصداع والقيء والبول وتدمير خلايا العقل والكبد).

ومن الأنهار التي في الجنة نهرٌ مميزٌ اسمه الكوثر، منبعه في الجنة، والظاهر أن منتهاه هو حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي قد شَرِب منه المسلمون بعد البعث (كما ذُكر في حديث قد مضى)، حتى ارتووا بعد ظمئهم يوم القيامة بسبب اقتراب الشمس من الأرض. ففي وصف الكوثر قال صلى الله عليه وسلم "الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنْ الثَّلْجِ"[1] (حَافَّتَاهُ أي أطرافه أو جوانبه). وفي هذا الحديث يتبين لنا أن هناك من الشراب في الجنة ما لا نعرفه ولم نعهده من قبل؛ صنفٌ جديد علينا ليس له وجود على الأرض في الأصل. فما هذا الشراب الذي هو أحلى من العسل وأبيض من الثلج، وربما تكون فيه بُرودة تزيد من لذته؟!

[1] سنن الترمذي 3284.

وعن المأكل جاء {وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ} [الواقعة 20–21]. ونبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن صفوة الطعام، وهو أول ما يأكله الفرد عندما يدخل الجنة احتفاءً به، قائلًا "وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ"[1] (فَزِيَادَةُ هنا بمعنى طرف الكبد، وهو أطيبها طَعمًا). فكم منا أكل كبد الحوت من قبل، أو حتى يعلم طعمه وقوامه؟ ويكون الطعام على مثل هذا المستوى، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سأله يهودي: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قال "زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ"، فقال: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ "يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا"[2].

ثم إن هناك قول الله تعالى {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ} [يس 57]، أي لهم ما يشتهونه فيُؤتى إليهم، فهل قد تأمل أحدنا في معنى ذلك حقيقةً؟ هل شعر أحدنا أن جسده يحتاج إلى أن يأكل شيئًا ولكن لا يعلم ما هو، أو أن يرتوي بشيء ولكن لا يرغب بالماء ولا العصير ولا شيء مما يعلمه؟ ألا يحدث ذلك لنا أحيانًا؟ فتخيل أن ذلك عندما يحدث في الجنة فإنه يؤتى بما يحتاجه ويشتهيه جسدك بالضبط، سواء كان من المأكل أو المشرب. فقد يكون لحم طير لم تأكل من صنفه قط من قبل، كلحم النعام، أو لحم طائرٍ لم يكن له وجود في الدنيا.

أو مثلًا يكون شرابًا شديد البياض ولكن ليس بلبن، غاية في الحلاوة ولكن ليس بعسل، خفيفٌ جدًّا ولكن ليس بماء، غني النكهة ولكن ليس بخمر؛ لونه ومذاقه وملمسه لم تعهد به من قبل، وهو تحديدًا ما كنت تشتهيه وتبحث عنه أحيانًا في الدنيا وأنت لا تعلمه! فدع خيالك يسرح في هذا الاتجاه الفكري قليلًا، ثم أدرك أنك ستجد في الجنة هذا الشيء الفريد الذي تخيلته أنت شخصيًّا، إضافةً إلى ما لم تستطع تخيُلهُ أيضًا.

وينتظر المسلم في الجنة أزواجه من الحور العين، ويتشوقن إليه ويتلهفن لقدومه كما دل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ: لا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا"[3]. وهن قد بشرونا بأنفسهن قائلات كما نبأنا صلى الله عليه وسلم "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَمُجْتَمَعًا لِلْحُورِ الْعِينِ، يُرَفِّعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ يَسْمَعْ الْخَلائِقُ مِثْلَهَا، يَقُلْنَ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلا نَبِيدُ، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلا نَبْؤُسُ، وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلا نَسْخَطُ، طُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ"[4].

---

[1] صحيح البخاري 3645، جزء من الحديث.

[2] صحيح مسلم 473، جزء من الحديث.

[3] سنن الترمذي 1094.

[4] سنن الترمذي 2488.

وفي رواية أخرى جاء "إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ، إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ: نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانْ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرَامْ، يَنْظُرْنَ بِقُرَّةٍ أَعْيَانْ؛ وَإِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلا يَمُتْنَهْ، نَحْنُ الآمِنَاتُ فَلا يَخَفْنَهْ، نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلا يَظْعَنَّهْ"[1] (يَظْعَنَّهْ أي يرتحلن عنه). وجاء في جزء من حديث عن أدنى أهل الجنة منزلة، بعدما صُرِف عن النار وأُدخل الجنة، فتستقبلنه أزواجه من الحور العين "ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ فَتَقُولَانِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ؛ فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ!"[2]، أي أنه يرى أن ما من أحد في الجنة قد يكون أُعطيَ مثل أو أفضل مما أُعطى من النعمة، وذلك من شدة المتاع وتثمينه للنِعم! ولعل ذلك يكون بسبب معاينته للنار ثم يُخرَج أو يُصرَف عنها، مما يجعله فعلًا ليس كغيره من عامة أهل الجنة في الحالة، والله أعلم.

وعن هيأتهن نبأنا تعالى قائلًا {وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [الواقعة 22-23]. وَحُورٌ: والحوراء هي التي في عينها كحل وملاحة وحسن وبهاء، وشدة سواد الحدقة في شدة بياض العين؛ عِينٌ أي حسان الأعين، واسِعَتان، وحسن العين في الأنثى من أعظم العلامات على حسنها وجمالها؛ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ أي لون بشرتهن كاللؤلؤ الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه.

وجاء أيضًا {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن 56-58]. قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أي يقصرن نظرهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غير أزواجهن من جمالهم عندهن وحبهن لهم؛ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ أي كأنهن الياقوت في الصفاء، والمرجان في البياض، الصفاء صفاء الياقوتة، والبياض بياض اللؤلؤ.

وهُن {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن 76] (رَفْرَفٍ هي المحابس، أي الفَرش الذي يكون على السرائر، وقيل إنه فضول المجالس والبسط؛ وَعَبْقَرِيٍّ هو وصف لكل ما كان ممتازًا في جنسه، نادر الوجود في صفاته، والكلمة تعود على رَفْرَفٍ، فهو الثوب الموشَّى بالذهب، والبالغ النهاية في الجودة والجمال، وقيل هي عتاق الزرابي، يعني جيادها). وقال تعالى أيضًا عنهن {وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا} [الواقعة 34-37] (أَبْكَارًا أي ترجع بكرًا بعد كل مجامعة؛ عُرُبًا هي جمع عروب، والعروب هي المرأة التي تتفنن في كلمات الحب والعشق والغرام لزوجها؛ أَتْرَابا يعني في سن واحد).

وعن جمالهن، نبأنا تعالى {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} [الصافات 48-49] (بَيْضٌ مَّكْنُونٌ أي بياضهن كبياض البيضة المَصونَة). وقال رسول الله (صلى الله

---

[1] صحيح الجامع للألباني 1561.

[2] صحيح مسلم 275.

عليه وسلم) "غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا (يَعْنِي الْخِمَارَ) خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"[1] (غَدْوَةٌ هي الخروخ في أول النهار؛ رَوْحَةٌ هي الخروج في آخر النهار؛ وَلَقَابُ قَوْسٍ هي مسافة ذراع).

وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) عن من يدخل الجنة "وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنْ الْحُسْنِ"[2]. وينبغي التوضيح أن أدنى أهل الجنة منزلة له اثنان من الحور العين، ومن أعلاه منزلة يكون له أكثر. ويجب أن يُذكر، أن المرأة المسلمة في الجنة تكون أجمل من الحور العين، إذ إن الله يُجمّلها لأعمالها الصالحة حتى تصير أحسن من الحور العين.

وعن الصحبة فيها وتفاعل الناس مع بعضهم {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [الواقعة 25-26] (لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا أي كلامًا باطلًا ولا كذبًا، واللغو هو كلام ليس فيه فائدة، والتأثيم هو اللَّوم والإنكار)؛ {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (47) لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر 45-48] (نَصَبٌ أي جهد أو تعب). ونبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ وَلا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا"[3] (لا اختلاف أي لا يحدث بينهم خلافات ولا تخاصم، فهم لا يتشاجرون).

والأفراد فيها يتبادلون الأحاديث والمرح والضحك بقلوب صافية متآلفة، ويشاركون بعضهم الفرحة والتهاني، ويتناقشون عن أمور الدنيا التي كانوا فيها كما نبأنا تعالى {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ} [الصافات 50]. قال الطبري (رحمه الله): فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا (انتهى). وهي متعة عظيمة بلا شك، إذ يتداولون الأحداث التي جرت معهم وجانبهم مما شاهدوه في الدنيا، وكيف أنجاهم الله في لحظات أوشكوا أن يقعوا في الهلاك باستحقاق سخط الله، وكيف حالهم عندما عاينوا ما نبأهم الله به في الدنيا بعدما صبروا على المشقة إيمانًا إخباريًّا بوجوده. كلٌّ له قصته الشيقة، فهم يتبادلونها بسرور والمستمعون في شوقٍ وتعجب.

وقال ابن كثير (رحمه الله): أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وذَكّر البيضاوي (رحمه الله):

---

[1] صحيح البخاري 2587.

[2] صحيح البخاري 3006، جزء من الحديث.

[3] صحيح البخاري 3006، جزء من الحديث.

وفي حديث فيه استفاضة عن علاقة الناس ببعضهم، جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ، ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيَزُورُونَ رَبَّهُمْ وَيُبْرِزُ لَهُمْ عَرْشَهُ وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ، وَمَا فِيهِمْ مِنْ دَنِيٍّ، عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ وَالْكَافُورِ، وَمَا يَرَوْنَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِيِّ بِأَفْضَلَ مِنْهُمْ مَجْلِسًا." قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ نَرَى رَبَّنَا؟ قَالَ "نَعَمْ، هَلْ تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟" قُلْنَا: لا؛ قَالَ "كَذَلِكَ لا تُمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، ولا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَجُلٌ إِلا حَاضَرَهُ اللَّهُ مُحَاضَرَةً، حَتَّى يَقُولَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ: يَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ، أَتَذْكُرُ يَوْمَ قُلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيُذَكِّرُ بِبَعْضِ غَدْرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَسَعَةُ مَغْفِرَتِي بَلَغَتْ بِكَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طِيبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئًا قَطُّ، وَيَقُولُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قُومُوا إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنْ الْكَرَامَةِ فَخُذُوا مَا اشْتَهَيْتُمْ؛ فَنَأْتِي سُوقًا قَدْ حَفَّتْ بِهِ الْمَلائِكَةُ فِيهِ مَا لَمْ تَنْظُرْ الْعُيُونُ إِلَى مِثْلِهِ وَلَمْ تَسْمَعْ الآذَانُ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْقُلُوبِ، فَيُحْمَلُ لَنَا مَا اشْتَهَيْنَا، لَيْسَ يُبَاعُ فِيهَا وَلا يُشْتَرَى، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الْمُرْتَفِعَةِ فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ، فَيَرُوعُهُ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنْ اللِّبَاسِ، فَمَا يَنْقَضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَخَيَّلَ إِلَيْهِ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا. ثُمَّ نَنْصَرِفُ إِلَى مَنَازِلِنَا فَيَتَلَقَّانَا أَزْوَاجُنَا فَيَقُلْنَ: مَرْحَبًا وَأَهْلا، لَقَدْ جِئْتَ وَإِنَّ بِكَ مِنْ الْجَمَالِ أَفْضَلَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: إِنَّا جَالَسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ، وَيَحِقُّنَا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا"[1] (وَيَتَبَدَّى أي يُظهر نفسه تعالى؛ وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ أي أقلّهم منزلة؛ كُثْبَانِ هو ما ارتفع من الرمل المجتمع؛ تَتَمَارَوْنَ أي تختلفون وتتجادلون؛ فَيَرُوعُهُ أي يُعجِبه).

وجاء عن خُلُق أهل الجنة كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلا يَتْفُلُونَ وَلا يَبُولُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ وَلا يَمْتَخِطُونَ"، قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ "جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ"[2] (وَلا يَبُولُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ أي لا يخرج منهم الفضلات، وهما البول والغوط؛ ولا يَمْتَخِطُونَ أي لا يخرج منهم المخاط الذي يكون من الأنف والحنجرة؛ جُشَاءٌ هو صوت يصدر من المعدة عندما تمتلئ بالطعام). فما أطيب مخالطة أناس خُلُقُهم هو دوام التسبيح والتحميد لربهم؟

---

[1] سنن الترمذي 2472.

[2] صحيح مسلم 5066.

أما عن طبيعة وهيئة الفرد في نفسه، فقد قال تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} [القيامة 22]، أي وجوههم حسنة مشرقة بهية مسرورة. وقال تعالى أيضًا {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ} [عبس 38-39] (مُّسْفِرَةٌ أي مستنيرة). وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ"، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ: إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ مِنْهُ الْحَاجَةُ، قَالَ "يَفِيضُ مِنْ جِلْدِهِ عَرَقٌ، فَإِذَا بَطْنُهُ قَدْ ضَمَرَ"[1] (تكون منه الحاجة أي يخرج منه الفضلات؛ ضَمَرَ أي تصغر وتضعف، والمعنى أنها تفرغ).

وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}"[2]. وليس على المرء تكليف بشيءٍ، ولا يتعب، ولا يصيبه إعياء أو ألم {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر 35] (النصب هو التعب الجسدي، أما اللغوب فهو الإعياء من الهم).

وعن قدر مُلك الفرد من أفراد الجنة، فقد قال تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} [الإنسان 20]، وهناك أثر، سنده ضعيف، للرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال عن مُلك أهل الجنة "إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ فِي مُلْكِ أَلْفَيْ سَنَةٍ، يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ، يَنْظُرُ فِي أَزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ، وَإِنَّ أَفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ فِي وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ"[3]. وقال المفسرون في الآية المذكورة إن الملائكة تستأذن قبل أن تدخل مُلك ذلك المرء! فأي تشريف وجاه وسلطة تلك؟!

وأدناهم مُلكًا في الجنة هو آخر رجل يدخلها، بعدما خرج من النار. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ كَبْوا فَيَقُولُ اللَّهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ؛ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ؛ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا (يقول الراوي: أَوْ قال: إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا)، فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي (يقول الراوي: أَوْ قال: تَضْحَكُ مِنِّي) وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟!"، ثم قال ابن مسعود: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ وَكَانَ يَقُولُ ابن مسعود (رضي الله عنه): ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً[4] (كَبْوًا بمعنى زحفًا).

---

[1] سنن الدارمي 2704.

[2] صحيح مسلم 5069.

[3] مسند أحمد 4395.

[4] صحيح البخاري 6086.

وأعلى منزلة في الجنة، غير الوسيلة التي هي للنبي (صلى الله عليه وسلم) إن شاء الله، هي الفردوس. قال عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[1] (وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ أي فيه منابع الأنهار التي تجري في سائر الجنة). ولأصحاب أعلى منزلة في الجنة، جاء في جزء من حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الله تعالى قال فيهم "أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[2] (الَّذِينَ أَرَدْتُ أي اصطفيتهم؛ فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ... إلى آخره، أي مما لهم من الكرامات).

وشملًا، جاء بالإجمال عن الجنة {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الزخرف 71، جزء من الآية]، وهذه النعم كلها، مع جُودها وتنوعها الرهيب، فإنها لا تنفد، إذ إن صانعها وواهبها هو الخالق الكريم {إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ} [ص 54]. وعن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}"[3]. والملائكة قالوا عنها {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [التوبة 72]. فأهل الجنة آنذاك منشغلون، ولكن منشغلون في التلذذ بمتاع الجنة {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ} [يس 55]. تلك ينبغي أن تكون غاية المرء، الفوز بالجائزة التي أعدها الله لمن أحسن حقًّا، جناتٍ ومساكن من الله لأفضل عباده، وأعظم شيء فوق ذلك كله هو رضوان الله عليهم ومنحهم رؤيته!

وكي تُقَيّم هذه النعمة الأخيرة –الرضا من الله–، تصور أنك سعيت وتعبت إلى أن أحبَّك ورضي عنك الخالق الذي خلق كل أحد وكل شيء، فكيف سيكون رضاك وسُكون نفسك، إذ لا يهم أرَضِيَ عنك الآخرون أم لا بعدما رضي عنك مالك المُلك؟ فالشعور بالحب والرضا الحقيقي من طرفٍ آخر غاية في إدخال البهجة على المرء، فما بال شعور العباد إذا كان الحب آتيًا من الله، ولدرجة أنه يرضى عنهم، ويتجلى هذا في أنه يتولى إعداد الجنة بذاته العُلى لتمتيع من رضي عنهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا يخطر لبشر؟!

أما فيما يختص بمتعة النظر إليه تعالى، فبالإضافة إلى أن هذا شرفٌ وتكريمٌ لا يُضاهيهما أي هبة أخرى ولو بقريب، وذلك لما يُنتجان من نشوة بالغة لدى العبد، لك أن تتخيل يا أخي أنه

---

[1] صحيح البخاري 6873.

[2] صحيح مسلم 276.

[3] صحيح البخاري 3005.

تعالى (وهو جميلٌ يُحب الجمال، كما نبأنا الرسول صلى الله عليه وسلم) هو الذي خلق الجمال نفسه. نرى من هذا الجمال ما خلقه تعالى من سماء بما فيهن من شمس وسحاب وكواكب وقمر ونجوم، والخضرة والبحار اللاتي تتلذذ بهن أعيننا ونرتاح بالنظر إليهم لما فيهم من جمال، فما بالنا بلذة النظر إلى جمال من خلقهن؟!

وقد بشرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا"[1]. واستفاض (صلى الله عليه وسلم) في موضع آخر قائلًا (وهو ينظر إلى القمر ليلة البدر، أي ليلة اكتماله) "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا"، ثُمَّ قَرَأَ {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}[2] (لا تُضَامُّونَ أي لا يشتكون ولا يشتبه عليهم، والمعنى أنهم لا يتزاحمون لرؤيته من مكانٍ محدد، ولكن جميع أهل الجنة يرون الله من أماكنهم؛ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا أي احرصوا على ألا تُغلبوا عن إقامة والحفاظ على هاتين الصلاتين، فالصبح لما فيه من ميل النفس من الراحة والنوم، والعصر لما فيه من انشغال الناس بالبيع والشراء أو المعاملات).

ويتبين في الآية {وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة 72] تعدد النعم، الجنات والأنهار والمساكن وأكثر. فجنات عدن بما فيها، شاملةً الحور العين، وفوق ذلك كله رضوان من الله، وفوق فوق ذلك كله الخلود على هذا الحال، فلا شيء أفضل وأمتع من رؤية الله عيانًا ونيل رضاه باستمرار.

وقد جاء في الحديث القدسي: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟! فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"[3]. فالخلود في رضا الله متعة فوق المتعة. ضع نفسك في هذه الحالة يا أخي: أنت في الجنة، وتخوض في متعة محددة تحبها، ثم تُبطئ لحظة لتتأمل، ماذا بعد أن تنتهي هذه اللحظة وأنتهي من متعتي تلك؟ الجواب: متعة رائعة أخرى بعدها، وسيظل ذلك هو الوضع بلا زوال دون شك! فكم تساوي هذه النعمة وحدها من الله، نعمة الطمأنينة واليقين بدوام التمتع؟

---

[1] صحيح البخاري 6883.

[2] صحيح البخاري 521.

[3] صحيح البخاري 6067.

فهذا الذي يجب أن نضعه نصب أعيننا ونَثبَت مُركِّزين عليه، مُصرِّين على بلوغه دون تشتيت أو زيغ. وليست الدنيا بما فيها هي التي نضعها نصب أعيُننا، فهل يُعقل أن ينال هذه المنزلة من آثر الدنيا على طاعة ربه وينغرق في المعاصي؟ واسأل نفسك يا أخي، هل ترضى عندما تدخل الجنة مع أوائل الأفواج الداخلة أن ترى فيها المفسدين والمُستكثرين من المعاصي في الدنيا؟ هل هذه هي الصورة التي في ذهنك عن الجنة؟

ولا يمكن، بالرغم من تكراري، التشديد بما يكفي على قدر أعلى متعة في الجنة، التي ارتقت إلى منزلة لا تبلغها أي متعة أخرى، وهي التي نبأنا عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ"، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}[1]. وجاء في حديث آخر "بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ"[2]. فلا يمكن لي إيفاءها حقها في الوصف، خاصةً أنه لا يمكن لي تخيل الوضع بحق من الأساس.

تلك بلا شك هي أفضل متعة ولذة في الدنيا والآخرة، رؤية خالقي وخالق الكون. وهذا دون شك شرف وتكريم عظيم للعبد إن أعطاه الله ذاك المنزلة. فاله خالق كل شيء جميل، فكيف يكون جماله هو!؟! إني حقًّا لا أُقدّر هذا الحديث ولا أنتم، لأننا لا ندرك معنى أن نرى الله! إننا إذا دخلنا الجنة سنرى رب كل شيء! لن تكون المتعة القصوى هي الحور العين ولا الطعام ولا الشراب ولا أي شيء، بل إنها رؤية الله.

إذا كان الإنسان بطبيعته يفرح إذا تقرب إليه شخصٌ ذو سلطة كبيرة أو شهرة واسعة أو بالغ الثراء، ويسعد إذا جاءته الفرصة أن يتحاورا. وهذا فيما بين الإنسان مع الإنسان فحسب، أي بين العبد والعبد، فما بال من أُتيحت له الفرصة أن يتكلم مع خالق الكون على انفراد إذا تمنى ذلك، ويرى ربه ورب كل شيء، وينظر الله إليه، بل ويعطيه تعالى من الوقت فيُخاطبه؟! ما مدى السعادة والفخر الذي سيكون فيه العبد؟ ففكروا في ذلك، في معنى أن نرى الله بأعيننا وأن نعني عنده شيئًا بحيث إنه ينظر إلينا. ولكن لا شك أن هذا المكسب له ثمن ومشقة {إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات 60-61]، ألا هلم إلى العمل إذًا؟!

---

[1] صحيح مسلم 266.

[2] سنن ابن ماجه 180.

بالورع يبلغ العبد منزلة العُبَّاد

قال ابن كثير (رحمه الله) في قوله تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات 13، جزء من الآية]: أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى. وأكَّد الرسول (صلى الله عليه وسلم) على هذا قائلًا "لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِدِينٍ أَوْ تَقْوَى"[1].

وقد ذُكِرَ رجل عند النَّبي (صلى اللَّهُ عليه وسلم) بِعِبَادَةٍ واجتهادٍ، وذُكِرَ عنده آخر بِرِعَةٍ (أي بورعه عما نهى الله عنه)، فقال (صلى اللَّهُ عليه وسلم) "لَا يُعْدَلُ بِالرِّعَةِ"[2]، أي لا يُعدَل بكثرة الوَرَعِ خصلَةٌ غيرها من خِصَالِ الخير، بل الوَرَعُ أعظم فضلًا. ومغزى الحديث من طيَّاته أن الشخص المُتورع عما نهى الله عنه، وهذا بالطبع يشمل تأدية الفرائض، يكون أفضل تعبدًا لله ممن فعلًا يُكثر من نوافل العبادات ولكن يقع في معاصٍ أكثر.

وفي جزء من وصية سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) جاء "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ"[3]. وشدد الحسن البصري (رحمه الله) على هذا قائلًا: ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه[4]. وللتوضيح، إيقاف النفس عند حدود الله هو من طاعة الله والتعبّد له، فطاعة الله تنقسم إلى: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

يُضاف إلى هذا أن من يجتنب ما نهى الله عنه، خضوعًا لله، يوَفقه ويُعينه الله على العمل الصالح والنوافل، فيزداد تعبُّدًا فوق التعبُّد، وهذا مما شمله قول الله تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد 17]. وقد فصَّل الحسن البصري (رحمه الله) هذا في موضع آخر بقوله: ما في الأرض شيء أُحِبُّه للناس من قيام الليل؛ فقال رجل: فأين الوَرَع؟ قال: به به [أي حسن حسن، إذ إن الورع يسوق العبد إلى قيام الليل]، ذلك مَلاكُ الأمر[5]. فالخلاصة من هذا كله أن العبد الذي يتقي الله يبلغ منزلة العُبَّاد عند الله، ولو كان يُقدَّم القليل من النوافل!

قد يصبح المرء مستجاب الدعوة

لا يزال العبد يتقرب من الله بطاعته ويتفادى معصيته تعالى حتى يُحبه الله ويظل قدره يرتقي عنده تعالى فيُكرمه. ومن أنواع التكريم هو أن تكون هناك صلة قوية بين العبد وربه، حتى إذا أقسم العبد على ربه أن يستجيب له دعاءه لم يخذله الله، فيُبرُّ قسم عبده هذا الذي يُحبه. وقد يكون هذا

---

[1] مسند أحمد 16804، جزء من الحديث.

[2] سنن الترمذي 2443.

[3] سنن ابن ماجه 4207.

[4] الورع لابن أبي الدنيا 42.

[5] الورع لابن أبي الدنيا 50.

العبد ليس له مكانة أو عزة عند الناس، ولكن بالرغم من أن الناس غفلوا عنه إلا أن الله معه فيُعزَّه ويستجيب له إذا أقسم على الله، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ"[1] (أَشْعَثَ أي أغبر الشعر وغير ممشط، في إشارة إلى أنه مسكين، مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ أي يغلقون عليه أبوابهم لأن لا قيمة له عندهم تصغيرًا لشأنه؛ أَقْسَمَ أي دعا الله أو أقسم؛ لأَبَرَّهُ أي استجاب له).

وبالطبع لا يتوارى عن أحد شرف وكرامة وميزة أن يكون العبد مُستجاب الدعوة، فمن المميزات أن العبد قد يطلب من الله قضاء له حاجةً تعسَّرت على العبد، أو يدعو لغيره بالهداية أو البركة أو المغفرة أو الشفاء أو أي منفعةٍ عامةً، أو يدعو الله أن يغفر له فتكون المغفرة مضمونة، أو الأكبر والأهم هو أن يدعو الله أن يهب له الكرامات في الآخرة سواء في ترفع المنزلة أو معافاته من العذاب. وربما من أقيمها للعبد في الدنيا هي استجابة دعائه في المواقف العصيبة فينصره الله، سواء على أحدٍ ظلمه ظُلمًا عظيمًا أو أحدٍ يريد الاعتداء على جسده أو عِرضه أو ماله أو أن ينتهك حرمات أهله، فحينئذ تنزل وقاية ونصر الله فيُحيلان المُعتدي وبطشه بعيدًا عن العبد التقي، بينما عجز العبد عن دفع الاعتداء بنفسه.

ولعل من أوثق تلك النماذج هو سيدنا أنس بن النضر (رضي الله عنه)، فقد روى أَنَّ الرُّبَيِّعَ (وهي عَمَّتَهُ) كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ (أي أسنانها الأمامية)، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الأَرْشَ (وهو التعويض على الكسر أو الجرح) فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَوْا إِلا الْقِصَاصَ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقِصَاصِ، فقال أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟ لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ"؛ فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا (أي تنازلوا عن القصاص من الرُبيّع)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ"[2].

ولاستيعاب أبعاد الواقعة، يجب أن نُدرك من هو سيدنا أنس بن النضر (رضي الله عنه) وما مواقفه. فهو أخو الرُبيّع، واستُشهد بعد هذه الواقعة في أُحُد بعد قتالٍ ضاريٍ عندما انكشف ظهر المسلمين. وكان تعهَّد قبل المعركة أن يبذل بذلًا كبيرًا إذا دخل معركة مع الرسول صلى الله عليه وسلم (قائلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ) لأنه قد فاتته معركة بدر.

وقال مقولته الشهيرة: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ (أي الرماة الذين تخلوا عن مواقعهم)، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ (أي المشركون الذين حاربوا الإسلام). وهذا حين اشتد الوضع

---

[1] صحيح مسلم 4754.

[2] صحيح البخاري 4140.

في معركة أُحُد، فاستُشهد وبِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ (أي نكَّل) بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إلا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ (أي بأسنانه، وأخته تلك هي الرُّبَيِّعَ)؛ ونزلت فيه ومثله قول الله تعالى {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}. ففي الواقعة دليل على أن الله حفظ أهل سيدنا أنس بن النضر استجابة لقَسَمه، وكان مُجاب القسم كما أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولعله كان مُجاب القسم لأنه كان صادقًا مع الله في أن يُقاتل بضراوة إذا دخل حربًا تحت رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ولكن يجب التنبيه على نقطة، هي أن مع أن أحدنا قد يبلغ منزلة أن يكون مُجاب الدعوة، إلا أن ذلك لا يعني أن الدعوة تُجاب على الفور، بل المعتاد أنه تُأخَّر إذ إن في ذلك منافع كثيرة للعبد، منها تعلم الصبر، والثقة في الله مما يزيد الإيمان، ولعل منعًا للعبد من أن يغتر بنفسه. وأُنبِّه على تلك النقطة لأن كثيرًا من الناس يدعون الله ثم يجزعون عندما لا يُستجاب لدعائهم على الفور أو ربما حتى إن لم تُقضَ المسألة بالطريقة التي أرادوها! فمن طبع الإنسان العجلة {خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ} [الأنبياء 37]، ودل على عجلة الإنسان أيضًا رد الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الصحابة الذين طلبوا منه أن يدعو الله أن ينصرهم سريعًا (وهم كانوا يتحملون الأذى والاضطهاد للتمسك بكلمة لا إله إلا الله في الأصل!)؛ فقال "وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[1].

فالمشكلة هي أن كثيرًا من الأفراد قد يجزع أو ييأس أو حتى ينتكس إيمانه إن لم يُستجاب لدعائه على الفور، خاصةً إذا كان في حاجة ماسة لما يطلبه، أو أخلص واجتهد في الدعاء والرجاء من الله. فلنحذر من الوقوع في ذلك الخطأ، ولنطمئن أن الله سيستجيب لنا. هذا حتى لمن ليس بمُجاب الدعوة، فإن له أجر الدعاء وإن لم يُستجب له في الدنيا، ودليل هذا قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي"[2]. ودليل آخر على حقيقة تأجيل إجابة الدعوة هو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) –وهو من هو–، الذي كان معصومًا فلم يعصِ الله قط وقد غُفر له ما تقدم وما تأخر، وأنه أشرف وأفضل وأكرم مخلوق عند الله، وأنه كان مُجاب الدعوة دون نقاش، ومع ذلك لم يكن يُستجاب لدعوته في التو واللحظة دائمًا.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك هو عندما كان يُصلي عند الكعبة قبل ظهور المسلمين على قريش، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يُصلي عند الكعبة وجَمْعُ قُريشٍ في مَجَالِسِهِم إذ قال قائلٌ منهم: أَلا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي؟! أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ (وهو ما ينزل من الناقة بعد

[1] صحيح البخاري 3343، جزء من الحديث.

[2] صحيح البخاري 5865.

الذبح أو بعد أن تلد) آلِ فُلانٍ فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا (الأمعاء والأحشاء) وَدَمِهَا وَسَلاهَا (ما يتبقى منها بعد الولادة) فَيَجِيءُ بِهِ، ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْ الضَّحِكِ، فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلام وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى، وَثَبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسُبُّهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلاةَ قَالَ "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ"، ثُمَّ سَمَّى "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ"؛ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود (رضي الله عنه): فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ، قَلِيبِ بَدْرٍ! ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً"[1].

فبالرغم من أنها دعوة من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، إضافةً إلى أنها كانت لمظلمةٍ وقعت عليه (وقد أقسم الله قسمًا بالغًا، إذ قد أقسم بعزته، أن ينصر دعوة المظلوم ولو بعد حين)، إلا أنه لم يُهلك هؤلاء المشركين في تلك اللحظة، بل في غزوة بدر، ولم تُفتح مكة فتُقهر قريش إلا بعد عدة سنين أيضًا. ودعوة المظلوم لها مكانتها الخاصة عند الله فلا تُرَدَّ، إذ إن الله يكره الظلم إلى حد أنه حرَّمه على نفسه العُلى، إلا أن الله أشار إلى عدم ضرورة إجابتها على الفور "وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ"[2].

فهل منا من هو أعز عند الله من الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى تُستجاب له الدعوة على الفور؟ فالصبر الصبر، ولو كان الأتقياء مُجابي الدعوة على الفور ما كنا لنرى ظالمًا أبدًا، لأنه التقي إذا دعى على الظالم وخسف الله به على الفور فلن يبقى على الأرض ظالم. وأيضًا لأتعظ الناس بفور العقوبة من الله على الظالم فلم يكن من رأى ذلك ليجرؤ أن يَظلم، فلكان كل الناس على الهدى والصلاح، وحينئذ لانتفى المغزى من اختبار الحياة الدنيا.

ورجوعًا إلى النقطة الأصلية، فإن العبد التقي قد يبلغ أنه يكون مُجاب الدعوة، حتى بعد الموت! ودل على ذلك حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَحُسْنَ مُنْقَلَبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا لِئَلّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلا يَنْكُلُوا عَنْ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ

[1] صحيح البخاري 490.

[2] سنن الترمذي 3522، جزء من الحديث.

وَجَلَّ هَؤُلاءِ الآيَاتِ عَلَى رَسُولِهِ {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ}"[1] (وَلا يَنْكُلُوا أي لا يَجبُنوا). فقد أجابهم الله بقوله "أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ"، واستجاب لأمنيتهم إلى درجة أنه أنزل لهم آية في كتابه الكريم تُتلى إلى الأبد. فأسألكم إخواني، ما تقديركم لنعمة أن يكون المرء مُجاب الدعوة في الآخرة، وخاصة في أثناء مواجهة أهوال الساعة؟

يمنح الله العبد الفراسة

من المميزات التي ينالها العبد التقي، ولا أظن أن هناك شخصًا إلا ويتمناها، هي استنباط حقائق الأوضاع الحالية والأحداث المستقبلية (أي استشفافها). وليس مقصدي علم الغيب لأن ذلك لله وحده، وقد نفى الرسول (صلى الله عليه وسلم) علمه للغيب {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف 188]، إنما أقصد الفطنة والفراسة. ولا شك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت عنده الفراسة، بل كان في منزلة أرقى من ذلك وهي أن الله يُوحي إليه بعضًا مما سيحدث –مثل انتصار المسلمين على كسرى وقيصر، وعلامات الساعة، وكثير غير ذلك–، وبعض مما حدث وكان النبي صلى الله عليه وسلم غائبًا عنه مثل تآمر قريش على قتله، ومثل إفشاء أم المؤمنين حفصة (رضي الله عنها) سرًّا له كما هو مذكور في سورة التحريم.

أما للمسلمين عامة فلهم أن ينالوا الفراسة التي قال عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ"، ثُمَّ قَرَأَ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}[2]، وهي تُكتسب عن طريق تعلم علوم الإسلام مع تقوى الله (شاملًا ترك المعاصي بالطبع). حينئذ يكتسب المرء تلك الفراسة، وتتجلى تلك الفراسة خاصة إذا اجتمعت مع من أنعم الله عليه بالبصيرة الثاقبة أيضًا، فيستشف أو يتوقع أمورًا غالبًا ما يصيب في تقييمه أو يكون مصيبًا في جزء كبير مما توقعه. وبالدور، إن البصيرة تزداد مع ترك المعاصي، خاصة مع حفظ البصر عن المُحرّمات، جزاءً من جنس العمل من الله، فقد قال بعض الصالحين: من حَفِظَ بَصَره أورثه الله نورًا في بصيرته[3].

والفراسة تحتاج إلى قاعدة بينات عند العبد يُدركها بالعلم (وهذا يشمل معرفة تاريخ الأجيال السابقة لأخذ العبر والفوائد منه) وبالخبرة، ولا شك أن فقه الإسلام من القرآن والسنة فيهما من أخبار ما قد كان، من أقوام هلكوا لجرائم مُحددة مثلًا، وقوانين لما سيكون، مثلًا أن ظلم الناس يؤول إلى التنكيل بالظالم في الدنيا لا محالة، أو أن ظهور الفحشاء يؤدي إلى أمراض لم تسبق في الأسلاف.

---

[1] مسند أحمد 2267.

[2] سنن الترمذي 3052.

[3] تفسير ابن كثير 283/3.

وقد سُئل أحد الحكماء: مَا الْعَقْلُ؟ قَالَ: الإِصَابَةُ بِالظَّنِّ، وَمَعْرِفَةُ مَا كَانَ بِمَا لَمْ يَكُنْ، وَمَعْرِفَةُ مَا يَكُونُ بِمَا كَانَ[1]. فمن منا لا يريد اكتساب تلك الصفة النافعة المُميزة؟

بقاء فطرة المرء سليمة

إن الطفل يولد بفطرة سليمة، فطرة الإسلام، تنجذب للمعروف وتنقبض من المُنكر، لكن هذه الفطرة تتغير تدريجيًا عبر الزمن بالمعاصي التي يرتكبها العبد، فلا تنقبض نفسه عندما يحتك بمنكرٍ جديدٍ. أما من ثبُت على فطرته وصان نفسه عن المعاصي فإن مؤشر الفطرة عنده يظل سليمًا، حتى في المواقف الجديدة، فيدله على الحق ويُريبه من المواقف التي فيها باطل، تمامًا مثل البوصلة التي يستخدمها المُسافرون والبحَّارون للاستدلال على وُجهتهم؛ فتخيلوا لو أن هذه البوصلة خربة توجههم إلى اتجاه غير غايتهم.

قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لصحابي –اسمه وَابِصَة (رضي الله عنه)– متلهف أن يعرف عن كل بِرٍ وإثمٍ "اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ (ثَلَاثًا)؛ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ"[2]. وهذا ينطبق على من تكون فطرته سليمة، أما من أكثر من المعاصي ففسدت فطرته إذا استشار قلبه أعطاه نتائج خاطئة. فترى مثلًا من يأكل أموال اليتامى، إذا عُرضت عليه فرصة أن يخدع أحدًا ويأخذ منه مالًا بالتحايل فلا يرى في ذلك عيبًا، وإذا سُئل عن حُكم المعازف فسيقول أنها لا يمكن أن تكون مُحرّمة، وإذا نُقل له الدليل الشرعي على تحريمها استنكر التحريم! قد انقلبت فطرته وأصبح المعروف له مُنكرًا، ومن المُنكر ما يراه معروفًا أو حتى خيرًا.

على الصعيد الآخر، من نزَّه نفسه عن المعاصي وسَلِمَ من الوقوع فيهن فإن فطرته تبقى سليمة، حتى إذا عرض عليه أحد صفقة أو مُشاركة في أمرٍ استطاع المرء أن يعرف إلى حد كبير إذا كان هذا الأمر مُباحًا أم مُحرّمًا (خاصةً في المسائل المُركَّبة أو الدقيقة)، وهذا عن طريق فطرته التي تجعله يشعر بالارتياح أو بالانقباض والريبة. وهذه الفطرة السليمة يحتاجها المرء لتجنب الحيل والمُفتنين للمعاصي والمُنكرين للمُحرَّمات، خاصةً في هذا الزمن والذي قادم، حيث كثرت الفتن. فالفطرة السليمة هامة كي يسلَم المرء من المعاصي، خاصةً الصغيرة أو المُتفشية في المجتمع.

ثقة في النفس والاطمئنان من بطش الناس

[1] المجالسة وجواهر العلم للدينوري 417/2.

[2] سنن الدارمي 2421، ورواه أحمد في مسنده، والحديث منقطع ولكن حسنه النووي والمنذري والشوكاني، وحسنه الألباني لغيره في "صحيح الترغيب" 1734.

إن للمرء الذي يتقي الله يكون واثقًا من نفسه، قادرًا على أخذ قرارات رزينة، وذلك لأنه يعلم الحق من الباطل بوضوح وأن الله معه لأنه مع الله فيما يُرضيه، وإذا أقبل على أمرٍ استشار الله عليه، والله يعينه إذ إن العبد يسير في رضا الله. يُضاف إلى هذا أن التقي يجد راحة في البال واستقرارًا لحالته النفسية؛ قد استبدل اضطرابات النفس نتيجة عصيان الله بالسكينة وثبات النفس، وهذا عندما ضحَّى بما حرَّمه الله مما تشتهيه نفسه. ومن هنا يجد لذة الاستقرار والهدوء النفسي، وهي سلعة غالية، يُدرك قيمتها من يفقدها، ولذَّتها أكبر من لذَّة المعصية. وهذه السكينة النفسية تزيد من ثقته بنفسه وركوزه.

والثقة في النفس متصلة بصفة أعلى في المرتبة وهي الطمأنينة من بطش الناس، إذ إن ذاك العبد يعلم ويشعر أنه قريبٌ من الله وأن الله قريب منه، وأن الله يكفيه أذى الناس. ومن ثمَّ فإنه يستيقن ويرسخ بداخله أنه وإن تكالب عليه جميع الناس ليؤذوه، لن يستطيعوا ما دام الله لم يأذن بذلك، فإذا أذن الله أن أذاهم يصله فهو يرضى بقضاء الله عليه وحُكمه، ويستيقن أن هذا خير له ولكن قد لا يستوعب كيف (مثل تكفيرًا لذنوبه ورفعة لمنزلته، أو تمهيدًا لخير قادم له في الدنيا).

فذاك العبد يُعايش ما جاء في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"[1]. ومن ثمَّ هو يسير ولا يلقي بالًا لتخطيط الناس له سواء بالنفع أو بالضر، وإنما همَّه وعيناه مُرَكَّزان على ما يُرضي الله، فمثل هذا أقدر على قول كلمة الحق أمام السلطان الجائر عندما يجد نفسه في ذاك الموضع، بثبات وثقة وعدم خشية. ولا ينبغي أن يُستخف بصفات مثل تلك، فإنهن من مفاتيح النجاة والسلامة.

وبما أن العاصي ينزل عليه عذاب الله في أي صورة ما شاءها تعالى، فمن العدل أن يحمي الله عباده الذين يطيعونه، وعلى هذا أدلة كثيرة، منها قول الله {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة 137]. وقد نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا قائلًا "لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ"[2] (يُعْذِرُوا أي يكثروا الذنوب والعيوب حتى تُقام الحُجَّة عليهم).

العون من الله

[1] سنن الترمذي 2440، جزء من الحديث.

[2] صحيح الجامع للألباني 5231.

العون في ترك معاصٍ أُخرى. جاء في كتاب الله {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد 17]، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس 9]. في هاتين الآيتين دليل على أن الله يُكافئ الذي يتفادى المعصية، وهو نوعٌ من أنواع الأعمال الصالحة، بأن يُوفِّقه إلى الخير والعمل الصالح حتى تعلو درجاته في الدنيا والآخرة، وهذا بالطبع غير الأجر الذي يأخذه المرء على تجنبه للمعصية في المقام الأول.

وتفادي المعصية يستلزم عون الله، كأن يُلقي الله في قلبه نفورًا أو خوفًا من المعصية. أو قد يُريه الله آية وعلامة ترد المرء إلى رشده وتوعظه وتزيده خشية من الله، كما حدث مع سيدنا يوسف عليه السلام عندما أغوته امرأة الملك {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف 24]. أو قد يُشغل الله المرء عن ارتكاب المعصية، كأن تطرأ للمرء مصلحةً يحتاج إلى قضائها. وفي أضعف الأحوال، قد يمنع الله عبده من المعصية بأن يمنع المعصية نفسها عن العبد، كأن يغيب بائع المُحرمات الذي كان العبد ينوي أن يشتري منه مثلًا. وهذا عونٌ من الله أيضًا، إذ إن العبد قد لا يزداد رصيد سيئاته بذلك على الأقل.

وبهذا العون من الله، يرتقي العبد مراتب عند الله، أو على الأقل لا يتدنى في المنزلة، إذ إنه تعالى يريد له الخير. فالعبد يرتقي عند الله نتيجة مساعدة الله له، فأي فوزٍ وميزةٍ وشرفٍ وكرمٍ أكبر من هذا؟

العون إلى وعلى الأعمال الصالحة. هذا دل عليه وصايا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، التي نقلها لنا سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) قائلًا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَنْ يَأْخُذُ مِنْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟" قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّهُنَّ فِيهَا ثُمَّ قَالَ "اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلا تُكْثِرْ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ"[1]. ففي الحديث دليل على أن من يترك المحارم يُصبح من أعبد الناس (أي من أكثر الناس طاعة لله) بعون الله.

ومن الأعمال الفريدة وعظيمة الأجر التي تستحق مجالًا خاصًا للاستفاضة عنها هو قيام الليل. فمن الوقائع المنيرة ما دار بين إبراهيم بن أدهم (رحمه الله) ورجل جاءه يقول: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء؛ فقال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل، فإن وقوفك

[1] مسند أحمد 7748 (في إسناده ضعف، ولكن قال الألباني: صحيح لغيره).

بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف[1]. ولكن هل يعلم كثير منا شرف وقيمة قيام الليل؟

كفى إعلاءً لمكانة قيام الليل وتشريفًا لمن يواظب عليه أن يكون الله قد ذكره وأثنى عليه في عدة مواضع في كتابه المحفوظ إلى يوم القيامة، فقد قال تعالى {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} [الفرقان 63-64]؛ {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [الزمر 9]. وقال تعالى أيضًا {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [السجدة 16].

ويباهي الله أمام ملائكته بالذين يجاهدون أنفسهم في تعبده والناس نيام، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديث قدسي "عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنَ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلاتِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلا لِمَلائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ مِنْ بَيْنَ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي؛ وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ، وَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فِي الانْهِزَامِ وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى هُرِيقَ دَمُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَلائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رَجَعَ رَجَاءً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقًا مِمَّا عِنْدِي حَتَّى هُرِيقَ دَمُهُ"[2].

بل وقد زاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في التوكيد على قدر قيام الليل قائلًا عن أحد الصحابة "نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ"، فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا[3] (وذاك الرجل الشاب كان عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما). وعلى الصعيد الآخر، قد ذم الرسول (صلى الله عليه وسلم) من كان يقيم الليل ثم تركه، قائلًا وهو ينصح عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) "يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ"[4].

وحث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليه مرارًا وتكرارًا، مثل في قوله "عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْهَاةٌ عَنْ الْإِثْمِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنْ الْجَسَدِ"[5] (دَأَبُ أي شأن وعادة). ووعَّانا (صلى الله عليه وسلم) بامتيازات صلاة الليل

[1] فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب لمحمد نصر الدين عويضة 400/9.

[2] صحيح ابن حبان 2622.

[3] صحيح البخاري 1054.

[4] صحيح البخاري 1084.

[5] سنن الترمذي 3472.

وكراماتها، مع تشويقنا لها قائلًا "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟"[1].

وقد سُئل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن أفضل الصلاة بعد المكتوبة فقال "أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ: الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ: صِيَامُ شَهْرِ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ"[2]. وجاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ"[3]؛ وهذا بالنسبة إلى التوقيت، أما في الحالة فيكون أثناء السجود كما جاء في حديث آخر، فما بالنا بمن يسجد لله في جوف الليل كم يكون قريبًا من الله؟!

وقد جاء جبريل (عليه السلام) إلى النَّبيِّ (صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ) فقالَ "يا محمَّدُ، عِش ما شِئتَ فإنَّكَ ميِّتٌ، وأحبِب مَن أحببتَ فإنَّكَ مُفارقُهُ، واعمَل ما شئتَ فإنَّكَ مُجزَىٰ بِهِ"؛ ثمَّ قالَ "يا مُحمَّدُ، شَرفُ المؤمِنِ قيامُ اللَّيلِ، وعزُّهُ استِغناؤُهُ عنِ النَّاسِ"[4] (استِغناؤُهُ عنِ النَّاسِ أي عما في أيدي الناس، كما يتبين في رواية أخرى "وعِزُّهُ اسْتِغْناؤُهُ عَمَّا في أَيْدِي الناسِ"[5]، فالحديث لا يدعو إلى العُزلة التامة أو المخاصمة أو الغلظة مع الناس). وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوصي قائلًا "أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ"[6].

أما عن تميز من يقوم الليل، فقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ"[7]. فتخيل معي أخي، هذا الشخص إذا طلب من الله قضاء أمرٍ انقضى، وإذا دعى على أحدٍ ظلمه انتكس ذلك الظالم لا محالة، وإذا توسل للمغفرة عن أي ذنب يُغفَر له دون شك إذا أكمل شروط التوبة. فأي عزة وتمكين لذلك الشخص، إذ قد استمد عزته وسلطانه من الله تعلى ووَطَّدَ صلة وثيقة مع خالق الكون؟!

وتفضل علينا الصحابة ومن بعدهم بنصائح عن قيام الليل، ففيهن دلالات على مدى عشقهم له، وتمتعهم به، وإدراكهم لقيمته، وهمَّتهم عليه. قال عبد الله ابن عمر (رضي الله عنهما) حين حضرته الوفاة: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وأني لم

---

[1] صحيح البخاري 1077.

[2] صحيح مسلم 1983.

[3] سنن الترمذي 3503.

[4] المستدرك للحاكم 463/5؛ قال فيه: صحيح الإسناد. والحديث رواه أيضًا البيهقي، وحسنه المنذري والألباني.

[5] السلسلة الصحيحة للألباني 1903.

[6] سنن الترمذي 2409.

[7] صحيح مسلم 1259.

أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا[1] (ظمأ الهواجر أي عطش الصيام عند نصف النهار حين يشتد الحر؛ اختلفت الأقوال في قصده عن الفئة الباغية، هل هم الذين حاربوا سيدنا علي رضي الله عنه، أم هو الحَجَّاج بن يوسف). ويُروى عن ابن المنكدر أنه قال: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في الجماعة[2]. وعن أبو الدرداء (رضي الله عنه): صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور[3].

وقال الحسن البصري (رحمه الله): ما نعلم عملًا أشد من مكابدة هذا الليل، ونفقة المال[4] (مكابدة أي مقاومة، والمقصد هو جهاد النفس لقيام الليل). وقال الأوزاعي: من أطال قيام الليل، هون الله عليه وقوف يوم القيامة[5]. وعن إبراهيم الخواص جاء: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين[6].

وقال سلمان (رضي الله عنه): حافظوا على هذه الصلوات الخمس، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة، فإذا صلى الناس العشاء صدروا على ثلاث منازل: منهم من عليه ولا له، ومنهم من له ولا عليه، ومنهم من لا له ولا عليه. فأما الذي عليه ولا له: فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فكب رأسه في المعاصي، فذلك عليه ولا له؛ وأما الذي له ولا عليه: فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فقام يصلي، فذلك له ولا عليه؛ وأما الذي لا له ولا عليه: فرجل صلى [أي صلاة العشاء] ونام فذلك لا له ولا عليه. وإياك والحقحقة، وعليك بالقصد ودوام[7] (كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة ربما يقصد أنها كفارات للذنوب ما لم تُرتكب الكبائر، والله أعلم؛ والحقحقة السير الشديد فتعطب راحلته، فلا يبلغ مراده؛ القصد أي الاعتدال والتوسط؛ والدوام أي المواظبة).

وقد حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أن يوقظ الرجل زوجته للقيام، والعكس أيضًا، فقال "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ؛ وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ"[8] (نَضَحَ هو البَل بالرش). وعلى ذلك الدرب سار أزواج كثيرون، حتى إن منهن من تحسرت على فوات زوجها قيام ليلة، فهذه امرأة حبيب أبي محمد انتبهت ليلة وهو نائم، فأنبهته في السحر وقالت له: قم يا

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي 232/3.

[2] موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين لمحمد جمال الدين القاسمي 90.

[3] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي 22/2.

[4] التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا 16.

[5] سير أعلام النبلاء للذهبي 119/7.

[6] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 327.

[7] المصنف 47/3-48.

[8] سنن النسائي 1592.

رجل فقد ذهب الليل وجاء النهار، وبين يديك طريق بعيد، وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقينا[1]. وختامًا لموضوع قيام الليل، علينا معرفة ما قاله الفقهاء من الأسباب المعينة على قيام الليل، فمنها ظاهرة وباطنة:

فمن الأسباب الظاهرة: أن لا يكثر الأكل والشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام؛ أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح أو تضعف بها الأعصاب، فإن ذلك أيضًا مجلبة للنوم؛ محاولة القيلولة بالنهار؛ عدم السهر إذا كان سينام قبل قيامه؛ تجنب جعل فراشه لينًا ومريحًا؛ استخدام وسيلة لإيقاظة مثل جهاز تنبيه أو أن يوصي أحدًا بإيقاظه. وأيضًا أن ينام متوضئًا وعلى جانبه الأيمن كما هي سُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، مع قراءة أذكار النوم، خاصةً ما ذكره (صلى الله عليه وسلم) عندما طلبت منه ابنته خادمًا ليعينها على أمور الدنيا فقال "أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَوْ أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ"[2]، ففي الحديث دلالة على أن ذلك يزيد من نشاط الجسد؛ أن لا يرتكب الأوزار بالنهار، فإن ذلك مما يُقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة والعون من الله.

أما الأسباب الباطنة: الإخلاص لله تعالى، لأن مع قوة إخلاصة تكون قوة العون من الله، ومن الإخلاص ألا يُشهِر المرء للناس ما قامه بالليل مع الله؛ سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا؛ خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل من الدنيا؛ أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار، ويتأمل في سلوك الصحابة والصالحين مع القيام، ويستشعر شرف الاستجابة لنداء الله والخلوة معه تعالى؛ محاسبة النفس وتوبيخها لترك قيام الليل. ومن أشرف البواعث: الحب لله وقوة الإيمان.

العون في إتمام الأعمال سواء الدينية أو الدنيوية. إن لتارك المعاصي نشاطًا في البدن والعقل، فينام أقل ويُنجز أعمالًا أكثر. هذا بالإضافة إلى أن الله يبارك له في وقته فيجد المرء أنه يُتم أعمالًا بما لا تتناسب مع الوقت الذي يُتوقع لها، فينتهي من أعماله ولا يزال يتبقى لديه الوقت. فهذه فوائد مُضاعفة، أن الوقت المتاح لقضاء الأعمال يزيد، وإضافةً إلى أن الله يُبارك له في وقته فيُتم الأمور أسرع، وهذا بالنسبة إلى أعمال حوائج الدنيا وأعمال العبادات (أي يقضي من أمور الدنيا والآخرة أكثر).

---

[1] صفة الصفوة لجمال الدين بن الجوزي 249/2.

[2] صحيح البخاري 4942.

العون بتيسير الحوائج. هذا العون يتمثل في انقضاء ما يُقبل عليه المرء من حوائج بمجهود ووقت بسيط نسبي، حتى يرى المرء أن الأمر كان أيسر مما كان يتخيله أو يتوقعه. أي إذا أقبل المرء على أمر من أمور دنياه أو آخرته، وجد أن الظروف تتغير والعوامل تتهيأ حتى يتسنى له إتمام ما أراده فيما لا يُغضب الله. والدليل على ذلك يأتي في قول الله تعالى {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق 4، جزء من الآية]. فمثلًا، قد يُسخِّر الله له شخصًا يمشي معه لمُساعدته في إتمام حاجته، ولا يعرف العبد الأسباب التفصيلية لماذا خرج هذا الشخص عن طريقه ليُساعده، ولكنه فضل وتدبير الله في الأساس.

وقد تكلمنا في فصل سابق أن الله يعين المرء في بدنه لقضاء مستلزماته، والفرق بين ذاك الفصل وهذا هو أننا الآن نتكلم عن تيسير ما أقبل عليه المرء وليس عن المرء نفسه. وهكذا يكون التأثير مزدوجًا، طاقةً في الجسد والعقل يعطيها الله للتقي، وتخفيضًا للعقبات التي يواجهها التقي فيما يُقبل عليه.

العون في الخروج من أي مأزق. في الفصل السابق كان الكلام عن تيسير الأمور التي يُقبل عليها المرء لقضائها، وفي هذا الفصل نتكلم عن درجة هي أعلى من تيسير الأمور، وهي إذا تعسرت الأوضاع واقتربت الشدائد من العبد أو بدأت تصيبه. إن العبد إذا ضاقت عليه السبل، وأدرك أنه حقًّا في مأزق، ويرى أنه لا مخرج بلا شك وأن الأزمة ستصيبه لا محالة، فإن الله يُنزِّل الإغاثة فيُخرج ذلك العبد من أزمته. ويخرج العبد من أزمته سواء من أوسع الأبواب أو من أضيق الأبواب، فكلتا الطريقتين هينتان أمام قدرة الله. ودليل ذلك بالعموم يوجد في قوله تعالى {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الصلاق 2-3].

وفي قضية تفريج الله لكربات العبد عدة جوانب يمكن أن نستطيل فيهن، ولكن سنتناول فقط اثنين: الجانب المتعلق بمتى يأتي الفَرَج من عند الله، والتساؤل عن لماذا لا يأتي الفَرَجُ من عند الله دائمًا. أولًا، فيما يتعلق بمتى ينزل الفرج، فهو ينزل عندما يأذن به العليم بكل جوانب القضايا، الحكيم في تقدير الأمور. فنزول الفرج من عند الله يكون في محله المثالي، ما بين تمحيص للعبد وبين حفاظ عليه من الهلاك بوقوع المصيبة. فيجب أن نُدرك ونستيقن أنه ما من توقيت أفضل مما نزل فيه الفرج، إذ إن الذي أنزل هذا الفرج هو العليم الذي يحيط بكل أطراف المشكلة والحكيم في تحقيق أعلى فائدة.

إننا قد عايشنا الأزمات فنستطيع أن نستشعر القضية، ورأينا كثيرًا كيف يأتي الفرج في آخر لحظة ومن حيث لم نتخيله، فأحيانًا يجب للمرء أن يبلغ مرحلة الإدراك أن كل السبل قد سُدَّت ولا يرى أي مخرج قبل أن ينزل الفرج، وتلك من حكمة الله. وقد حدث هذا حتى مع الصحابة (رضي الله عنهم) عندما تكالب اليهود وقريش للقضاء عليهم في غزوة الأحزاب فحاصروا المسلمين، وكانت غدرة اليهود في ظهر المسلمين في أثناء المواجهة مع قريش. أنبأنا الله تعالى {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب 10–11]. فهل نحن أفضل من الصحابة حتى نأمل ألا يحدث مثل ذلك معنا؟

وبهذه الطريقة (اشتداد الأزمة قبل نزول الفرج) يتحقق أمرين، وهما أن العبد يزداد رجاؤه من الله ومن ثمَّ قربه من الله، وأن العبد يُبتلى فيُعلم معدنه وتُمحى بعض ذنوبه. في اشتداد البلاء اختبار وتمحيص للناس، فيتميز المؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب. وهكذا نكون قد تكلمنا عن الجانب المتعلق بتوقيت نزول الفرج من عند الله.

وأما الجانب الآخر الذي سنتداوله، وهو الاستفسار عن لماذا لا يأتي الفرج من عند الله أحيانًا، فيرى المرء أنه وقع في المصيبة في نهاية المطاف. قد يقول الإنسان إنه في مأزق في موقف ما فلماذا لا يأتي العون من الله؟

لعدم الإطالة، سنضع جانبًا أن المصائب كثيرًا ما تقع كعقاب بسبب معصية الله، ولأنهم تركوا طريق السلامة الذي وصاهم الله به فيتركهم حتى يُعاينوا المصائب المُترتبة، كما دل قول الله تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران 165]. وعلى الصعيد الآخر، لنتداول الوضع الذي يخص العبد المنيب إلى الله. إذا كان العبد تقيًّا مستغفرًا لله فإنه ليس الذي يُقدِّر إذا بلغ قعر الأزمة أم لا، بل الله هو الذي يُحدد ذلك بحكمته. كثيرًا ما يظن العبد أن الله لم يُغثه ثم يأتي الفرَج من عند الله، ويخرج العبد من أزمته في نهاية الأمر مع انصلاح ما يراه العبد من ضرر قد لحق به، فما على العبد هو أن يصبر.

ووجب على المرء أن يستيقن أنه حتى إن بلغ ذروة الأزمة ووقعت به كاملةً، فإن الخير له هو أن تُصيبه، وإن لم يدرك كيف، ولذلك لم يكشفها الله، خصوصًا إذا شكر العبد ربه على ذلك البلاء. وكيف نتعجب من أن يشكر أحدنا ربه بعدما تصيبه المصيبة، وقد أثنى الله على الذي يفقد ابنه ثم يحمده تعالى على هذا؟ فأي بلاء في أمور الدنيا أعظم من ذلك؟ يروي لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيَقُولُ:

قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ: بَيْتَ الْحَمْدِ"[1] (وَاسْتَرْجَعَ أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون).

العون من الله في الانتصار على الأعداء. يقول تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد 11]. قد ذكُر في الجزء السابق أن الله قد لا يُمَكِّن للمسلمين في الأرض، بل وقد يُسلِّط عليهم المشركين عقابًا لتركهم منهج الله، ولكن إذا تمسك المسلمون بكتاب الله انقلبت الموازين تمامًا. ذلك ليس فقط بأن الله لا يُسلِّط عليهم الأمم، بل وإذا تجرأ المشركون بالتكالب على المسلمين فإن الله يُحبط كيدهم وينصر المسلمين عليهم، فيُهزم الكافرين مهما بلغت قوتهم وبلغ تطورهم في التسلح، ومهما كانوا متأهبين ومُتقنين وخبراء في التخطيط!

أفلم نمر على قول الله تعالى {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج 40–41، جزء من الآيات]. فكم تصمد أسلحة المشركين أمام رياح الله؟ الريح التي أهلك الله بها أقوى الأمم في عصر عاد (إذ كانت أجسادهم ضخمة) {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ} [فصلت 15–16]. وهذا الريح جُند واحدٌ من جنود الله، ولا يزال هناك المطر والرعد والرمال والشمس والبرد وغير ذلك، وبالطبع لا ننسى الملائكة، الذين أنزلهم الله في معركة بدر.

وفي الواقعة التي يُعتبر منها، وهي معركة بدر، جاء عن ابن عَبَّاسٍ (رضي الله عنه) أن النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال وَهُوَ فِي قُبَّةٍ "اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ"، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ؛ وَهُوَ فِي الدِّرْعِ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}[2] (العهد والوعد هو بنصر المسلمين، فإن تركهم الله سيهلك المسلمين ولن يُعبَد الله وحده بعد تلك المعركة). فانتهى الأمر بأن الله نصر المسلمين على المشركين بعدما أنزل سكينته وجنوده من الملائكة.

وحتى عندما أصاب المسلمين البلاء في غزوة أُحُد، والتي نتجت عن تخلي الرماة عن مواقعهم التي أمرهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بالثبوت فيه، وبالرغم من ذلك كان الرد من الرسول (صلى الله عليه وسلم) حازمًا وحاسمًا إذ إنه يعلم أن الله لا يزال معهم، ولكن جاء البلاء درسًا

[1] سنن الترمذي 942.

[2] صحيح البخاري 2699.

للمسلمين لئلا يعصوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثانيةً. قد جاء عن الْبَرَاءَ بن عَازِبٍ (رضي الله عنه): جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا، عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ "إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ"؛ فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ (البراء): فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ (نساء المشركين فعلوا ذلك ليسرعن في الفرار من المعركة)، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الْغَنِيمَةَ، ظَهَرَ (أي انتصر) أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قَالُوا: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنْ الْغَنِيمَةِ!

فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا وَسَبْعِينَ قَتِيلًا، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ (أحد زعماء المشركين): أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجِيبُوهُ. ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاءِ فَقَدْ قُتِلُوا. فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ! قَالَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ (أي تبادل في النصر)، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً (أي تشويه لأجساد المسلمين المقتولين) لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي؛ ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ (أي يُنشد شعرا): أُعْلُ هُبَلْ أُعْلُ هُبَلْ (أي ظَهَرَ دينُك). قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَلا تُجِيبُوا لَهُ؟" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ "قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ!" قَالَ (أبو سفيان): إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلا عُزَّى لَكُمْ (وعُزَّى هو صنمٌ لهم إتخوه إلاها يعبدونه ويبتغون منه العزة)، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَلا تُجِيبُوا لَهُ؟" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ "قُولُوا اللَّهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ!"[1].

فهكذا ينبغي أن تكون ثقة المسلم وإن هُزم في معركة بسبب زلة وقع فيها مَن حَوله، فإن عزة المسلم مُستمدة من عزة الله عن طريق تمسكه بأوامر الله، فيكون الله مولاه. وحول الموضوع – الانتصار على الأعداء– سنستفيض أكثر إن شاء الله في الباب القادم، إذ إن هذا الموضوع فرع من فروع عنوان الباب القادم. إجمالًا، قد ذكر الله الذين يتَّقونه بالخصوص في أنه ينصرهم على أعدائهم، فقد قال تعالى {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة 194، جزء من الآية].

[1] صحيح البخاري 2812.

العون من الله في كف عن المسلمين مكايد وأضرار المنافقين في المجتمع. إن العبد إذا اتقى الله، كفاه الله شر المُفسدين ومكايدهم، وعلى هذا الأساس فإنه، وهذا من كمال التقوى والإيمان بالله، لا يجوز أن يلجأ العبد الصالح إلى أساليب وأفعال ملتوية وغير شرعية. فلا يجوز له مثلًا أن يرتشي أو أن يَقتُل الظالم خارج إطار حكم السلطان، كي يأخذ حقَّه أو ينتقم. هذا خاصة أن هناك احتمالًا أنه قد يكون متوهمًا أنه مظلوم، بينما يلجأ للأساليب غير الشرعية، فيأخذ ما ليس له وبأسلوب مُحرَّم أيضًا، فتكون التوريطة الكُبرى لنفسه وفوضى مُترتبة بين الناس. ولكن ما ينبغي له هو اللجوء إلى الأساليب الشرعية التي أذن بها الله. وقد قال سيدنا عمر (رضي الله عنه): مَا كَافَأْتَ مَنْ يَعْصِي اللَّهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ[1]. والمعنى هو: ما عادلته أو عاقبته بمثل أن تطيع الله فيه، وهذا لأنك تُوكل الله أنه هو الذي ينزع حقك منه، وبما لا شك في أنه تعالى سيُرضيك، وذلك ما دمت لم تنتقم لنفسك بالباطل).

وعاقبة من العواقب التي تنتج عن سلك ضرب الباطل لنيل الحقوق هو أنه إذا لجأنا إلى الأساليب غير الشرعية فإننا أصبحنا سواسية مع الظالمين في المبدأ فنتشبَّه بمنهجهم. حينئذ نكون قد طغينا عن الله الذي نتوكل عليه لنصرتنا، فكيف نتوقع أن يكون معنا وينصرنا آنذاك وقد خالفناه وبَعدنا أنفسنا عنه؟ فاللجوء إلى الأساليب الباطلة وإسناد الأمر للناس (مثل طلب المحسوبية أو الوساطة، أو التوسل وامتداح شخص ما لنيل منه خدمة غير شرعية) يقود العبد للذل والتيهة، إذ إن الله قد يترك العبد ويوكل أمره إلى الناس بعدما كان الله هو الذي يتولى أمور ذلك العبد.

وفي تلك الحالة نكون قد تركنا سبب نصرتنا الأصلي وهو استعانتنا بالله، ونكون قد تمسكنا بأسباب الدنيا وحدها فنهون على الله، وأسَّسنا اعتمادنا عليها مع أن قانونها هو أن الذي يظفر يكون بناء على من هو أقوى بدلًا مِن مَن معه الحق! وبالرغم من أن ذلك ثقيل على النفس –ألا يسترد المظلوم حقه بأساليب غير شرعية– فإن الله وضع تلك الضوابط والحدود بحكمته الشامله وعلمه المُطلق، ففي الالتزام بتلك الضوابط درء لفتن أكبر قد تقع من استرداد المرء لحقه بمخالفة شرع الله. وعلى المؤمن أن يثق دون شك أن الله سيرد إليه حقه، أو يُبدله به ما هو خير منه، نظرًا لتقواه لله بعدم لجوئه للباطل الذي حرمه الله، ولو كان لاسترداد حقه.

وأبرز مثال على ذلك ما جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه لا ينبغي الخروج على الحاكم بالسلاح إن كان ظالمًا، ما دام يقيم الصلاة. قد قال (صلى الله عليه وسلم) "خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ"، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ "لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلاةَ، وَإِذَا

[1] روضة العقلاء لابن حبان 90/1.

رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ"[1] (وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ أي يدعون لكم وتدعون لهم بالخير).

الحديث يحث المجتمع، وإن كان مظلومًا، ألا يخرج على الحاكم لأن في ذلك لفتة إلى أنه سيؤدي إلى فتن أعظم، والله أعلم. ويجب أن يُعلم، أن الحاكم الظالم ليصل إلى السلطة بعدما يأذن له الله نظرًا لفساد عامة المجتمع، فهو عقاب من الله حتى يذوقوا عواقب تخليهم عن منهجه تعالى، فمن أراد رد عقاب وأمر الله بالقوة (أي بالسلاح، بدلًا من الاتعاظ والرجوع إلى شرع الله)، كان جزاؤه أن الفتن تكون أشد وأكثر، فيكون العقاب أغلظ.

ولكن مقابل هذا، إذا كان المجتمع مظلومًا من الحاكم وأراد أن يسير في مظاهرات مسالمة بعدما تعذر الوصول إليه بالأساليب الرسمية المُتاحة، فليكن ذلك بنية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحديدًا الأخذ بيد الظالم وتقويمه عن طريق إبداء الاستياء. وإذا اختار المجتمع طريق المظاهرات، فإنه يجب أشد الوجوب إصلاح الأفراد لأنفسهم عن طريق تقوى الله –الالتزام بالصلوات في المساجد، وتحكيم شرع الله في حياتهم، وترك المنكر، والارتقاء بالأخلاق مثل العدل والتعاون، وغير ذلك–. وذلك لأن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم، وإلا تتالت عواقب وخيمة لأن أمر الله نافذٌ لا محالة بأن من ابتعد عن منهج الله لا بد أن يُولى عليه حاكم ظالم. ولن يصل المرء لشيءٍ بمقاومة سُنَن الله وإرادته، بل ربما ازداد الوضع سوءًا {وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} [الرعد 11، جزء من الآية]؛ {وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [يوسف 21، جزء من الآية].

وهناك حكمة خلاصية قالها الإمام الحسن البصري (رحمه الله) عندما وقعت فتنة بين المسلمين في زمن الحجاج، فيروي سُلَيْمَانُ بْنُ عَلِيٍّ الرَّبْعِيُّ قَائلًا: لَمَّا كَانَتْ فِتْنَةُ ابْنِ الأَشْعَثِ إِذْ قَاتَلَ الْحَجَّاجَ، انْطَلَقَ عُقْبَةُ بْنُ عَبْدِ الْغَافِرِ وَأَبُو الْجَوْزَاءِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ غَالِبٍ فِي طَائِفَةٍ فَدَخَلُوا عَلَى الْحَسَنِ فَقَالُوا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا تَقُولُ فِي قِتَالِ هَذَا الطَّاغِيَةِ الَّذِي سَفَكَ الدَّمَ الْحَرَامَ وَأَخَذَ الْمَالَ الْحَرَامَ وَتَرَكَ الصَّلاةَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ؟ قَالَ: أَرَى أَنْ لا تُقَاتِلُوهُ، فَإِنَّهَا إِنْ تَكُنْ عُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ فَمَا أَنْتُمْ بِرَادِّي عُقُوبَةَ اللَّهِ بِأَسْيَافِكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بَلاءً فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ، فَخَرَجُوا وَهُمَ يَقُولُونَ: نَطْرَحُ هَذَا الْعِلْجَ (أي الرجل الشديد الغليظ)، قال: وَهُمْ قَوْمٌ عَرَبٌ؛ وَخَرَجُوا مَعَ ابْنِ الأَشْعَثِ فَقُتِلُوا[2].

وأقول ذلك لأن السلطان الظالم إنما يصل إلى السلطة بإذنٍ من الله، وعادة ما يحدث ذلك كعقاب من عقوبات الله على المجتمع المتراخي عن دينه. أما إذا خُرج على الحاكم وأُزيل عن سلطانه بالقوة بأقل إراقةٍ للدماء، وذلك في أحسن الافتراضات، فغالبًا سيؤول الأمر إلى أن يتولى ظالم آخر

[1] صحيح مسلم 3447.

[2] تاريخ الإسلام للذهبي 7/53–54.

عاجلًا أم آجلًا لأن أمر الله نافذ لا محالة، لأن عباده لا يزالون بعيدين عن شرعه الذي وضعه لهم. وبالمنطق، فإن الحاكم يصعد من المجتمع، فما احتمالية أن يخرج حاكمٌ عادلٌ من مجتمعٍ فاسد؟!

وعلى الوجه الآخر، إذا كان القوم صالحًا ولّى الله عليهم من يتقي الله فيهم، فيعدل فيهم ويظل هذا هو الوضع. أما لو حاول أحد الظالمين الصعود أو الاستيلاء على الحكم على قوم صالحين لكفاهم الله شره وأعجزه عن بلوغ ذلك، لأن الله لا يُهلك قومًا فيه عباده الصالحون، ويظل حالهم هكذا في خير إلا إذا ابتعدوا عن منهج الله. وأكرر ههنا قائلًا أيضًا إن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم، فإذا انتكسوا يعلو عليهم حاكم ظالم.

ورجوعًا إلى النقطة الرئيسية، ففي التزام المرء بما حدده الله من خطوات لاسترجاع حقه دون سلك الطرق المُخالفة زيادة في الإظهار لله على أن العبد يتقي الله، مما يجعل الله يُبارك للعبد في ما يفعله ويرُد الله له حقه بسبب تقواه (ولو في الآخرة دون الدنيا، ولكن قد يُعوِّض اللهُ العبدَ ما سُلِب منه في الدنيا أيضًا). فكما صدق العبد مع الله فإن الله يصدُق مع العبد، وما وقع على المرء من ظُلم من المُفسدين هو بلاء من الله واختبار له، أيتقي أم يلجأ إلى ما نهى الله ليثأر، مع العلم أن حق المظلوم راجعٌ راجع لا محالة لأن الله عهد بذلك. فالقضية المحورية هي تقوى الله.

وعلى هذا أدلة كثيرة، ففي القرآن الكريم جاء في أكثر من وضع أن الله يكُفَّ بأس أعداء الإسلام عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعن المسلمين {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} [الحجر 95]، {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال 62]، {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال 30]. وجاء {وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الأنفال 71]، {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة 67].

وحدث هذا أيضًا يوم غزوة أُحُد عندما رجع المنافقون عن الجهاد، وحقيقة الأمر أن الله أراد فصلهم عن المسلمين فثبطهم وذلك لأنهم {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالا ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة 47]، فمنع الله المنافقين من المُجاهدة مع المسلمين. والعجيب أن هؤلاء المنافقون ظنوا أنهم هم الذين قعدوا باختيارهم وأنهم بذلك هم الفائزون على أنهم تفادوا الحرب فنجوا بأرواحهم، وهذا من مكر الله بهم وخداعه لهم أنه جعلهم يتوهمون أنهم المتحكمون في زمام الأمور. وهناك وقائع غير تلك قد حدث في بعضها معجزات بكل المقاييس كي يكفي الله المؤمنين شر المُفسدين، مثل إغراق فرعون في البحر المفلوق ونزول الملائكة في معركة بدر.

واستدلالًا بالسُنَّة الشريفة، فقد بيَّن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الله لينصرن الإسلام ولو باستخدام الرجل الفاجر، فقد يجعل أُمةً كافرة تنصر الإسلام والمسلمين دون أن يتعمدوا، وذلك بمقاتلة أمة كافرة أخرى كانت تسعى لمحاربة المسلمين. وبالطبع هذا يدل على أن الله قد يفعل هذا أيضا لنُصرة ولو فرد واحد مؤمن يُحبه الله. يروي سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه): شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُ يَدَّعِي الإِسْلاَمَ "هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ"، فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ مِنْ أَشَدِّ الْقِتَالِ وَكَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحُ فَأَثْبَتَتْهُ (أي أضعفته وأعجزته)، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ الَّذِي تَحَدَّثْتَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَدْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَشَدِّ الْقِتَالِ فَكَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحُ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ"، فَكَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَرْتَابُ. فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ وَجَدَ الرَّجُلُ أَلَمَ الْجِرَاحِ فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِهِ فَانْتَزَعَ مِنْهَا سَهْمًا فَانْتَحَرَ بِهَا، فَاشْتَدَّ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ، قَدْ انْتَحَرَ فُلاَنٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يَا بِلاَلُ، قُمْ فَأَذِّنْ: لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا مُؤْمِنٌ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ"[1].

ويكفي قولًا إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يعلم المنافقين الذين بين المسلمين في المدينة فردًا فردًا لأن الله أنبأه بأسمائهم، ومع أنهم كانوا فتنة في المجتمع إلا أنه لم يقتلهم لأنه علم أن هذا سيُحدث فتنةً أكبر في المجتمع، كما سيأتي بيانه قريبًا في واقعة الفتنة بين المهاجرين والأنصار. فترك الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمرهم إلى الله أن يكفيه شرَّهم ومكرهم ويقي مجتمع المسلمين من الفتنة التي يسعى المنافقون لها، وهذه من حكمته البالغة الرشيدة الرزينة وذكائه في التعاملات السياسية.

فيا ليت ساسة هذا الزمن يتعلمون ويتأسون بفطنة وحكمة ودهاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الأمور القيادية وإدارة الأمم والتعاملات في المواقف الحرجة، بدلًا من المطالبة بفصل الدين عن السياسة ومحاربة منهجه (صلى الله عليه وسلم) والسير وراء خطى الأجانب الذين نبذوا الله من حياتهم! ويوشك قادة المسلمين أن يفلحوا إذا ساروا على درب الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وسبحان الله على تحقيق ما يُنبئ به أن تناقضات ستقع (مثل تصديق الكاذب وتخوين الأمين، والعلو في الأرض للعصاة، وأن تصبح الأمة الإسلامية من الأمم المتأخرة تنمويًا بالرغم من أنها تشهد أنه لا إله إلا الله) بسبب ابتعاد المسلمين عن دينهم بعدم تَعَلُّمه وتطبيقه.

ومن ضمن تلك التناقضات أن الحُكَّام يريدون فصل الدين عن السياسة، ولو أنهم أخذوا بأحكام القرآن وأخذوا سياسة التعاملات والإدارة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لفلحوا ولنجوا

[1] صحيح البخاري 6116.

ولعلوا في الأرض وفي الآخرة. هذا ولا يزال يُعارضون سياسة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالرغم من أن سياساتهم في التعامل مع القضايا أكثر إهدارًا لمصالح المسلمين وأورط لهم في الأزمات عما كان عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فهو قدوة لنا في كل شيء، وقد خاب وخسر من تخلى عن الاقتداء به. بل ومن خالف منهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقاوم تحكيمه في الأرض فقد كتب على نفسه الذل والتيهة والهوان لا محالة، إذ قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي"[1].

ومن الحِكَم البالغة التي فيها عبرة ودرسٌ لنا في بُعْدِ النظر للأمور، والنظر إلى الصورة الشاملة المُستقبلية والتعامل معها على ذلك الأساس، هي الواقعة التي حدثت على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة حين وقعت فتنة بين المُهاجرين والأنصار وكاد أن يتقاتلوا. جاء عن سيدنا جابر بن عبد الله (رضي الله عنه): كُنَّا فِي غَزَاةٍ فِي جَيْشٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ "دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"، فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "دَعْهُ، لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"، وَكَانَتْ الأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ[2] (فَكَسَعَ أي الضرب على المؤخرة؛ عبد الله بن أُبيّ كان رجلًا من المنافقين من المدينة).

ومن تلك الواقعة نأخذ عبرتين لتعَلُقِهما بموضوع الكتاب، أولاهما أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يسمح بقتل ذاك المنافق مع علمه به لأنه خشي من حدوث فتنة أكبر من فتنة تركه، وهي أن يفتري أعداء الإسلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقتُل بعض أتباعه، فيُرهبون الناس من الدخول في الإسلام، وهذا من بُعد نظرته الشاملة الحكيمة. وثانيهما أنه توكل على الله وامتثل بالمنهج الذي وضعه الله، فلم يُخالف شرع الله بقتل رجلٍ دون استحقاق ممن يقول: لا إله إلا الله، وإن كان يظهر منه النفاق، إذ إن الله لم يأذن له بالتنقيب عن قلوب من يقول شهادة التوحيد فيحكم عليهم، بل وقد نُهي عن قتل من قال شهادة الحق وأن يترك سرائرهم إلى الله (وإن نبأه الله بها).

قد أعلن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا قائلًا "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ

[1] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَاب مَا قِيلَ فِي الرِّمَاحِ.

[2] صحيح البخاري 4525.

وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ"[1] (إلا بِحَقِّ الإِسْلامِ أي بشرائع الإسلام مثل القصاص في النفس بالنفس؛ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ أي أن الله هو الذي يُحاسبهم على سرائرهم ولم يؤمر هو بذلك). وعن أسامة بن زيد (رضي الله عنه) حين بُعث ليتحروا أعداء المسلمين يروي لنا: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ؛ فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَقَالَ 'لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ' وَقَتَلْتَهُ؟!" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلاحِ! قَالَ "أَفلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا؟"، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ[2].

جاء في شرح النووي للحديث الأخير: وَقَوْله (أَفَلا شَقَقْت عَنْ قَلْبه حَتَّى تَعْلَم أَقَالَهَا أَمْ لا؟) الْفَاعِل فِي قَوْله "أَقَالَهَا" هُوَ الْقَلْب، وَمَعْنَاهُ أَنَّك إِنَّمَا كُلِّفْت بِالْعَمَلِ بِالظَّاهِرِ وَمَا يَنْطِق بِهِ اللِّسَان، وَأَمَّا الْقَلْب فَلَيْسَ لَك طَرِيق إِلَى مَعْرِفَة مَا فِيهِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ اِمْتِنَاعه مِنْ الْعَمَل بِمَا ظَهَرَ بِاللِّسَانِ. وَقَالَ: أَفَلا شَقَقْت عَنْ قَلْبه لِتَنْظُر هَلْ قَالَهَا الْقَلْب وَاعْتَقَدَهَا وَكَانَتْ فِيهِ أَمْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ بَلْ جَرَتْ عَلَى اللِّسَان فَحَسْب، يَعْنِي وَأَنْتَ لَسْت بِقَادِرٍ عَلَى هَذَا فَاقْتَصِرْ عَلَى اللِّسَان فَحَسْب، يَعْنِي وَلا تَطْلُب غَيْره. وَقَوْله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَفَلا شَقَقْت عَنْ قَلْبه) فِيهِ دَلِيل لِلْقَاعِدَةِ الْمَعْرُوفَة فِي الْفِقْه وَالأُصُول أَنَّ الأَحْكَام يُعْمَل فِيهَا بِالظَّوَاهِرِ، وَاَللَّه يَتَوَلَّى السَّرَائِر. وَقَوْله (حَتَّى تَمَنَّيْت أَنِّي أَسْلَمْت يَوْمئِذٍ) مَعْنَاهُ لَمْ يَكُنْ تَقَدَّمَ إِسْلامِي بَلْ اِبْتَدَأْت الآنَ الإِسْلام لِيَمْحُوَ عَنِّي مَا تَقَدَّمَ، وَقَالَ هَذَا الْكَلام مِنْ عِظَمِ مَا وَقَعَ فِيهِ.

وبيَّن صراحةً أن ذلك هو منهجه في واقعة فارقة عندما بعث علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ؛ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاءِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "أَلا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟!" فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الإِزَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ؛ قَالَ "وَيْلَكَ، أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟"، ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، فقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ "لا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي" فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ"، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ فَقَالَ "إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ"؛ ثم قال الراوي: وَأَظُنُّهُ قَالَ "لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ"[3].

---

[1] صحيح البخاري 24.

[2] صحيح مسلم 140.

[3] صحيح البخاري 4004.

والمعاني التي في الحديث: بِذُهَيْبَةٍ أي قطعة من ذهب؛ أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ أي قماشة مدبوغة بنبات القرظ؛ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا أي لم يُخَلَّص الذهب ويُستخرج من ترابه بالسَّبْك؛ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ أي عيناه داخلتان؛ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ أي عظمتين الخد بارزتان؛ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ أي بارزةً؛ كَثُّ اللِّحْيَةِ أي غزيرة؛ مُشَمَّرُ الإِزَارِ أي مُقصِّر ثوبه؛ ضِئْضِئِ أي من النسل والعقب؛ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ كناية على أنه يقف عند ألسنتهم ولا يصل إلى قلوبهم؛ يَمْرُقُونَ أي يخرجون؛ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ كناية عن سرعة وشدة خروجهم من الدين كما يخرج السهم من القوس المشدود. وفي الجزء "لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ" قضية إذ قد يقال لماذا سيقاتلهم مع أنه نهى سيدنا خالد (رضي الله عنه) عن قتل ذلك الرجل، والجواب هو أن ذلك الرجل لم يخرج على المسلمين بالسلاح ولم يُظهر عداوته لهم، بل أظهر الاختصام دون المقاتلة، أما من خرج على المسلمين بالسلاح فوجب مقاتلته. والخلاصة هي أنه (صلى الله عليه وسلم) رجى من الله أن يكفيه مكايد وضرر المنافقين بتقواه لله، وقد كان.

العون بالثبات في نطق الشهادة عند الموت، وعند السؤال في القبر، وعند المحاسبة، وعند عبور جسر جهنم. جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، عندما يأتي الملَك ليستجوب المرء في القبر، أنه قال "فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الإِسْلامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}، فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الإِسْلامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ"[1]. وأريد أن ألفت الانتباه جيدًا إلى جانبين من الموقف: أولهم هو أن الملَك يسأل العبد، ثم عندما يُجيب المسلم بفطرته الإجابة الصائبة فإن الملَك ينتهره، أي يزجره ويطعنه حتى يُعيد الإجابة.

وقيل إن ذلك فيه تشديد في السؤال، وكأن الملَك يُنكر على العبد، أي كأن الإجابة كانت خاطئة فيعطيه الملك فرصة أخرى لتعديلها، وهي بلا شك فتنة للعبد ليُعلم مدى صدقه وثباته، فيُثبّته الله ويجاوب العبد بنفس الإجابة الصحيحة ثانيةً. وهذا الجانب من الموقف في القبر يُضاف إلى الجانب الأول الذي قد يغفل عنه كثير من الناس، وهو أنه مَلَك يسأل المرء سؤالًا مصيريًّا، وفي يده مطرقة هائلة ليضرب بها من يُجاوب خطأ!

ولعل هذه هي فتنة القبر التي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يُعلّمنا أن نتعوذ بالله منها قائلًا "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ

[1] مسند أحمد 17872. ضعَّفه الأرناؤوط بهذا اللفظ.

النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنْ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنْ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ"[1] (وَالْمَأْثَمِ أي ما يتسبب في ارتكاب الإثم، أو الإثم بعينه؛ وَالْمَغْرَمِ أي الديون التي يعجز المرء عن أدائها، إلى أنه ربما إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف).

وهذه المطرقة كبيرة إلى درجة أنها يمكن أن يُضرب بها جبل فيصير ترابًا، فالضربة منها شديدة لدرجة أنها تُحوّل المرء إلى ترابٍ. وجاء في حديث آخر أن بعض الصحابة سألوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعدما حدَّثهم عن أحداث القبر فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحَدٌ يَقُومُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فِي يَدِهِ مِطْرَاقٌ إِلا هُبِلَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ}"[2] (هُبِلَ أي سقط ووقع من الرعب، ولعلها تعني أنه سيتلثم وربما يُخطئ).

وهذا فيما يتعلق بالآية {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء} [إبراهيم 27]، وفيه يتبين لنا كيف يُثبت الله المؤمنين في السؤال في القبر. وقال العلماء إن الآية تشمل لحظة الوفاة أيضًا إذ إن ذلك في الحياة الدنيا، بأن يتيسر على المؤمن نطق الشهادة "لا إله إلا الله"، وذلك بخلاف المُفسد الذي لا يستطيع قولها، وإن حاول من حوله تلقينه قولها والعياذ بالله. وهناك دليل صريح على هذه النقطة تحديدًا، أن الله يعين العبد على العمل الصالح عند موته حتى تكون خاتمة حياته حسنة، فيدخل الجنة. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا، اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ "يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ"[3].

وإني أريد أن أشير إلى أن هذا الثبات قد يمتد إلى بعد السؤال في القبر أيضًا، لأن الآية عامة بقوله تعالى "وَفِي الآخِرَةِ"، فالراجح أنها تشمل عند المحاسبة أيضًا، حينما يكون المؤمن واقفًا أمام ربه تُعرض عليه مساوئه ويُسأل عنها، وأيضًا حينما يُسأل عما قدّمه من عمل صالح. والثبات يكون في كِلا الأمرين –بحُسن عرض موقفه عند عرض عليه ذنوبه وعند ذكر عمله الصالح–. فأما الثبات عند عرض ذنوبه عليه فيكون مثلًا بألا يُكذِّب ما كُتب عليه، لما يلحق التكذيب من عواقب وخيمة (مثل بدء تكلم الأعضاء وازدياد سخط الله على العبد)، بل إن المؤمن يُقر بذنوبه بالرغم من الفزع الشديد الذي هو فيه! ولعل عذرٌ صادق أو حُجة قوية يُلهمها الله للمؤمن فيقولها تؤدي إلى عفو الله عنه، كما تدل أحاديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيأتي ذكرها آنفًا إن شاء الله.

---

[1] صحيح البخاري 5891.

[2] مسند أحمد 10577.

[3] مسند أحمد 11768، جزء من الحديث.

أما فيما يخص بالثبات عند سؤاله عن أعماله الصالحة، فمعلومٌ أن التوتر الشديد قد يجعل المرء ينسى ذكر بعض أعماله أو ما يحفظه من علم –مثل عند تلاوة ما يحفظه المرء من القرآن أمام الجبار–، أو ذكر نياته الصادقة الخالصة لله في عمل من الأعمال. هذا شبيهٌ بالطالب الذي يُذاكر ولكن توتره في الامتحان، خاصة الشفهي، قد يجعله ينسى أجزاءً مهمة من الإجابة، بل وربما لا ينسى ولكن بسبب توتره ترتعش يداه أو يتعثر لسانه فلا يستطيع نقل المعلومة الذي يريد إبدائها. وهذا كله في الدنيا، فما بالنا بتلعثم العبد وهو واقف أمام ربه يُحاسب.

ومن تلك الأشياء التي قد تُنسى هو ما حفظه العبد من قرآن في الدنيا، وكل آية تُعلي من قدر منزلة العبد في الجنة مصداقًا لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا"[1] (اقْرَأْ هنا أي التلاوة بما حفظه المرء من القرآن). حينئذ يحتاج المؤمن للثبات من الله ليستطيع أن يتلو على الله ما يحفظه من القرآن، أما المُفسد فقد لا يُثبته الله على تلاوة ما يحفظه فتفوته فرصة الارتقاء في منزلته عند الله، خاصة إذا كان ذلك المفسد لا يعمل بما حفظه من كتاب الله فتكون الطامة الكبرى إذ تكون تلك الآيات حُجَةً عليه بدلًا من حُجَّةً لصالحه!

قبيل آخر الفصل أريد ذكر أن العبد المؤمن الذي يُثبته الله يُحسن عرض أعماله الصالحة أمام الله، فيأخذ على عمله أضعافًا مُضاعفة من الأجر بسبب عرضه، وهناك أدلة لأُناس أحسنوا عرض أعمالهم أمام الله فتحسنت أوضاعهم. وكلنا نُدرك عامةً أن عرض القضية قد يفرق كثيرًا في النتيجة، وذلك ما بيَّنه لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ"[2]. هذا ومع الفارق طبعا أنه أشار أنه بشرٌ فقد يُخطئ، وعلى الوجه الآخر فإن الله لا يخفى عليه شيء ولا يُخطئ، ولكن عرض العبد لقضيته أمام الله قد تجلب رحمة الله أو عذابه، وفيما يلي أدلة على ذلك:

جاء في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ 'جَرِيءٌ' فَقَدْ قِيلَ؛ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ"[3] (إلى آخر الحديث، الذي فُعل بمثله مع رجلٍ تلا القرآن رياءً ورجلٍ تصدق رياءً). فهذا مثالٌ على أناس أساءوا عملهم في الدنيا وأساءوا عرضهم له في الآخرة فكَذَّبهم الله، وفي الحديث

---

[1] سنن الترمذي 2838.

[2] صحيح البخاري 6452.

[3] صحيح مسلم 3527.

تشديد على أهمية الصدق مع الله في الآخرة إضافةً إلى الصدق في العمل لله في الدنيا. ولو أنهم صدقوا مع الله في الحساب لربما رحمهم الله، كما حدث مع الذين ذكرهم النبي (صلى الله عليه وسلم) في الأحاديث التالية.

فقد جاء على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أيضًا "كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا! فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ؛ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ؛ فَغَفَرَ لَهُ"[1] (يُسْرِفُ أي يقضي كثير من شهواته بالمعاصي). فقد غفر له الله لخشيته من خالقه ولإيمانه أن ربه هو الذي سيبعثه ويُحاسبه ويُعذِّبه.

ونبأنا أيضًا (صلى الله عليه وسلم) في حديثٍ قُدسي قائلًا "يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ أَرْبَعَةٌ يُعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ قَدْ كُنْتُ أَرْجُو إِنْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا أَنْ لا تُعِيدَنِي فِيهَا! فَيَقُولُ: فَلا نُعِيدُكَ فِيهَا"[2]. فمثل هؤلاء نجو بسبب عرضهم لحالهم أمام الله بطريقة حسنة، ومما لا شك فيه أن الله أعانهم على حُسن الحُجة! فأي رحمة وكرم ورأفة تلك؟! إنها منازل من الرحمة والكرم والرأفة لا تليق إلا بالله رب كل الأشياء الأحد الصمد.

ثم يأتي بعد الحساب –لمن ينتسب للإسلام، المؤمن والمنافق– عبور جسر جهنم، وإنها للَّحظة الفارقة، إما النجاة وإما الإهواء في جهنم. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُوضَعُ المِيزَانُ يومَ القيامةِ فَلَوْ وُزِنَ فيهِ السَّمَاوَاتُ والأرضُ لَوَسِعَتْ، فَتقولُ الملائكةُ: يا رَبِّ لِمَنْ يزِنُ هذا؟ فيقولُ اللهُ تعالى: لِمَنْ شِئْتُ من خَلْقِي، فَتقولُ الملائكةُ: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ. ويُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدَّ المُوسَى فَتقولُ الملائكةُ: مَنْ تُجِيزُ على هذا؟ فيقولُ: مَنْ شِئْتُ من خَلْقِي، فَيقولونَ: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ"[3]. فمن هذا الحديث نستيقن أنه من المستحيل عبور جسر جهنم إلا لمن أعانه الله على عبوره، فما مدى احتياجنا إلى عون الله في تلك المرحلة وحدها؟ وسيأتي إن شاء الله الكلام عن هذا الأمر مُفصلًا في باب: كيف أحث نفسي على ترك المعاصي، في فصل التذكرة (سابعًا: عبور جسر جهنم).

عدم إهلاك الله للصالحين، بل ومع تمكينهم في الأرض

[1] صحيح البخاري 3222.

[2] مسند أحمد 12835.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني 941.

وقاية الله عباده من أن يصيبهم أي نوع من الهلاك. قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود 117]. هذه الآية تضع الأمور في إطار واضح، أنه لا يُمكن ولا يُعقل أن يُهلك الله قوما صالحًا مليئًا بعباده، يشهدون أنه لا إله إلا هو ويُطيعونه على ذلك الأساس. إن الله لا يُهلكهم لأن إهلاكهم سيزيد من شوكة المشركين في الأرض، وهذا خلاف سُنَّة الله في الأرض. وهذا كلام منطقي، فإن كان قومًا يصلحون فلماذا يُهلكهم الله؟ بل وأكثر من ذلك، فإن الله يحميهم من كل معتدٍ عليهم من الأمم الظالمة، لأن الله يؤثِر عباده الصالحين على غيرهم. والشرط في نيل وقاية الله من غضبه كالأمراض والعواصف ومثل ذلك، بالإضافة إلى الحصانة من أعداء المسلمين، هو الصلاح. فإذا تركنا الصلاح، فلن نعز على الله أن يتخلى عنا لنهلك أو حتى أن يُهلكنا بنفسه.

وهناك رواية، ضعيفة الإسناد ولكن فيها من الحقائق ما فيها، أن عمر بن عبد العزيز عهد إلى بعض عماله (وهم يستعدون للجهاد): عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة. ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراسًا لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم. وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم، فإنا لا نُنصر عليهم بمقتنا ولا نغلبهم بقوتنا. ولا تكونن لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا أشد تعاهدًا منكم لذنوبكم، واعلموا أن عليكم ملائكة الله حفظة عليكم، يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنازلكم، فاستحيوا منهم، وأحسنوا صحابتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله، وأنتم زعمتم في سبيل الله. ولا تقولوا إن عدونا شر منا ولن ينصروا علينا وإن أذنبنا، فكم من قوم قد سلط –أو سخط– عليهم بأشر منهم لذنوبهم، وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم، نسأل الله ذلك لنا ولكم[1].

بل وقد نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أن النصر يأتي بعكس المعاصي قائلًا "إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاتِهِمْ وَإِخْلاصِهِمْ"[2]. وهذه نقطة يغفل عنها كثير من المسلمين، وهو أن النصر مرهون باللجوء إلى الله بالدعاء والحفاظ على الصلاة وإخلاص العمل لله. فكثير من المسلمين يُقبل على أسباب الانتصار عن طريق الحروب أو المُكايدات أو المظاهرات أو المفاوضات دون اللجوء إلى الله والرجوع إليه وإعطائه حقه تعالى، ثم يتعجبون أنه لماذا لم ينصرهم الله. هم قد تخلوا عن الله وأخذوا بالأسباب، فلماذا يتوقعوا أن يكون الله معهم إلا فقط لأن الله وعد المظلوم بالنصرة؟

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 5/302-303.

[2] سنن النسائي 3127.

لماذا يعتمدون على أن الله لن يُعرض عنهم كما أعرضوا عنه وأقبلوا على الأسباب دون رب الأسباب؟ فإن كان لهم الميزة في العدة والعتاد والتخطيط انتصروا، وإن لم يكن لهم ذلك –وهو غالبًا ما يكون الوضع– فلن ينتصروا، إذ إنما هي حرب أسباب وليست حرب إعلاء كلمة الله في الأرض! هذا وقد خص البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد بابا بعنوان: عَمَلٌ صَالِحٌ قَبْلَ القِتَالِ؛ جاء فيه أن أَبُو الدَّرْدَاءِ قال: إِنَّمَا تُقَاتِلُونَ بِأَعْمَالِكُمْ (أي أعمالكم الصالحة)، واستدل بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: 3]، فهناك ربط في الآية بين العمل الصالح والمُقاتلة.

فهل يُعقَل أن يُعز على الله قوم يعصونه ويُسخِطونه؟ ماذا قدمنا له كي نعز عليه آنذاك، وقد قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر 15–17]. فلن يعز عليه أن يهلكنا بمنتهى البساطة بالرغم من كثرتنا، فلن يُشكِّل ذلك معه فرقًا ولن ينظر إلينا.

وقال تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور 55]. في هذه الآية دلالة على أن الله لَيَنصُر المؤمن المحسن حتى يُمكِّنه في الأرض، وتدل أيضًا على أن التغيير في النفس إلى الأصلح أساسٌ قبل تمكين الله للمرء في الأرض. وقد جاء هذا صريحًا في قوله تعالى {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم 47]. وعلى هذا الأساس فإن العكس صحيح، فإن كان قومٌ في رخاء ونعمة من الله وتمكين ثم تغيروا وخالفوا أمره، ليُذلَّنهم الله في الأرض ولَيُمكِّنن عليهم غيرهم.

والهدف من هذا الكلام هو ليستوعب الناس ما يرونه يحدث على أرض الواقع مما تعاصره بعض الدول الإسلامية من ثورات مطالبة بالحق بينما الإجهاضات للثورات هي التي تنجح. إذا كان مجتمعًا يغلبه الفساد ثم احتجوا على الحاكم بمظاهرات للمطالبة بحقوقهم حتى يُزيلوا ذلك الحاكم (إن استطاعوا)، فإنه لا بد من أن الحاكم القادم، أو الذي يليه أو الذي يليهما، أن يكون فاسدًا ظالمًا، لأن الحاكم سيأتي من صفوف المجتمع، والمجتمع قد غلب فيه الفساد. هذا أو يحدث أمر غير متوقع كما حدث في مصر، وهو أن فئة من المجتمع أزالوا الحاكم الظالم ثم ارتضى أغلب المجتمع على حاكم هو أقرب لتقوى الله، ولكن لم يُصلحوا أنفسهم إلا قليلًا فلم نلبث إلا أن شريحة من المجتمع استطاعوا أن يُزيلوا الحاكم المُبايع بالقوة، فأتى من هو أسوء من الظالم الأول، ولا يقبل بترك السلطة! هذا لأن سُنَّة الله في الأرض أن القوم الذي به فساد كثير يتولى أمره حاكم ظالم، وسُنَّة الله لا تتبدل عبر الزمن ولا يُمكن مقاومتها.

إضافة إلى ذلك، فإن أيادي أعداء الإسلام تمتد وتتغلغل -إذ لا يقي الله المسلمون العصاة من مكايد أعداء الإسلام، ولا يُحبِط مُخططات الأعداء لتدمير المجتمع الإسلامي- إلى منافقين المجتمع فيتعاونون، وبالفعل يُمَسَّكون مفاصل الدولة حتى لا يتمكن المسلم المُصلح من حُكم البلاد، فيُسيطر المنافقون على القرارات العامة للمجتمع ويُقدمون مصالح أعوانهم من الأجانب على مصالح المجتمع صاحب الأرض. ومن ثمَّ، يجد عامة الناس أنهم تسري عليهم قوانين وقرارات لا يرضون بها أبدا، مثل الغلاء والبطش والإهانة واستباحة الأعراض والاستيلاء على أملاكهم، ولكن أبشعها تتجسد في الخيانة للدول الإسلامية الأخرى وموالاة، بل ومعاونة، المشركين والصهاينة في حربهم ضد الإسلام.

وعلى الوجه الآخر، إذا أصلح المجتمع نفسه فإن الله سيولي عليهم حاكمًا عادلًا صالحًا بطريقةٍ غير متوقعةٍ وإن لم يتظاهروا، بل إني أتمادى في حسن الظن وأقول إن هذا سيحدث دون إراقة دماء للمسلمين حتى، لأن الله سيقينا الفتن وهو وكيلنا حقًّا حينئذ! أما في الوضع الحالي للبلاد الذي كثرت فيه الفتن وكثرت إراقة الدماء على كلا الجانبين، مما يُفطر القلب ويُدمي المرء بكاءً حزنًا على حال الأمة الإسلامية، فإن ذلك لن يُغير من سُنة الله في الأرض: أن القوم إذا صلحوا وُلِّي عليهم حاكم صالح. أما وإن فسد القوم فإنهم لا يُصبحون أذلة وهينين فقط في أعين غير المسلمين، بل حتى بين المسلمين بأن يُوُلى على القوم من يظلمهم ويقهرهم ويُهينهم مع أنه منهم.

وهذا ما رأيناه من جَعل المجتمع ينقسم إلى طوائف مُتعددة بناء على أُسس مُتنوعة مُبالغ فيها، واستضعاف طوائف أو حتى شرائح من المجتمع، مما أدى إلى ظُلمهم بشتى الطرق. وأما من كان له صلة بحاكم أو مسؤول فإنه يتوسط عنده فلا يكن من الفرقة المستضعفة. والباقي إما أن يتملق ويُنافق الحاكم الظالم فيُترك سالمًا، بل ويُعطى الثراء فيزدهر، وإما أن يكون من المقهورين، فأي فتنة تلك إذ فيها إغراء للمرء إلى الفساد والنفاق. فأي قانون هذا الذي يُشبه قانون الغابة في البقاء، إذ البقاء للأبطش وليس البقاء للأتقى. وهذا الحال يُذكرنا بالآية {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص 4]، فالتاريخ يُعيد نفسه ولكن لمن المناجاة، فَمَن ينصت ويعي إلا الأقلية؟

ومن نُصرة الله لمن اتقى من عباده أن يحميهم من أعداء الإسلام والمسلمين فيكفيهم شَرَّهُم. ومن أبرز الأمثلة على هذا وقاية الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) من الهلاك في مواقف عدة، مثل إخباره باتفاق قريش لقتله، وستره في الغار، وفي معركة أُحُد، ومن خيانات اليهود لقتله. ولكن وقاية الله تكون للمؤمنين عامة إذا اتقوا، فقد قال تعالى فيما يتعلق بأعداء المسلمين {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [المائدة 64]. ففي الآية دليل على أن الله يُضعف أُساسات مكايد أعداء المسلمين حتى تنهار على نفسها وتتلاشى فلا تضُر

المسلمين، بل وقد يقلب كيدهم عليهم فيصيبهم هم! وكذلك يكفي الله المسلمين ما لا يحسبوه من مكر أعدائهم، وهذا إذا اتقوه وأخذوا بأوامره ومَكَّنوا شريعته في الأرض وسلموا له تسليمًا بإيمانهم.

وهناك واقعة مُعبرة وشيّقة يرويها لنا سيدنا أنس (رضي الله عنه)، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في قُبَّةٍ له يوم بَدْرٍ "أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا"، فأخذ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ؛ وَهُوَ فِي الدِّرْعِ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ "{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}"[1]. وفي الحديث ناجى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه قائلًا إنه إذا هلك المسلمون اليوم فلن يُقام الإسلام لأنه سيُقضى على من يؤمنون أنه "لا إله إلا الله"، فهل من المنطق أن يتخلى الله عن قومٍ يعبدونه وحده حتى يهلكوا فلا يُقام اسم الله في الأرض؟! لا والله ليس هذا ظننا في ربنا، بل إنه يُدافع عنهم ولو بالمعجزات.

إن الله يُدافع بذاته العُلى عن عباده المؤمنين. هذه المدافعة تشمل ما قد يُصيب المرء من مصائب، مثل الحوادث التي قد تودي بحياة المؤمن من نقمة الله –مثل الزلازل والعواصف، عندما ينزل عقاب الله على قومٍ عامته مُفسدون–، ومن مكر أعداء الإسلام بالمسلم في صيغة أذيته أو محاولات لقتله. قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج 38]. فالحمد لله الذي يدافع عن عباده المؤمنين، واعلم أخي أنه لن يستطيع أذيتك أحد في المُحصِّلة إن خالفته لتتجنب معصية الله، فإذا آذاك –ولن يحدث هذا إلا إذا قدَّره الله عليك– فإن الله سيُثيبك إلى درجة أن عناءك لن يتناسب مع مُكافأتك، وأن الذي آذاك سيدفع الثمن أضعافًا مُضاعّفة، إذ إنه حاد الله في عباده.

فإن شاء الله أن يكفيك أذاه فلن يصلك أذاه، وإن شاء الله أن يصيبك فهو لحكمة يعلمها الله، ويجب أن تثق فيما اختاره الله لك، فقد تكون تلك الأذية تكفيرًا لذنوبك أو يكون من ورائها خير لا يُنال إلا بعد ذلك البلاء. وتفكر كيف سيكون شعورك، إذا أرضيت شخصًا بسخط الله ومع هذا سخط ذاك الشخص عليك فبطش بك، فلا نلت ثواب الدنيا ولا الآخرة، ونالك سخط الله. فإن الناس قد يخذلون ولكن الله لا يخذل أبدًا من يتقيه، فأقبل على المضمون، وهو الله، وأعرض عن المُتَقَلِب المُجازَف معه، وهو الإنسان. أسخِط الظالم المتجبر في إرضاء الله، واعلم أن الله معك فلا محال من أن المُحصلة ستكون في صالحك.

هذا بالإضافة إلى المنزلة العظيمة للعبد عند الله، فمن الذي يرفض أن يكون الله هو الذي يدافع عنه؟ أما الإقبال على معصية الله بكثرة فهو نقيض للعهد الذي بين العبد وربه على طاعة الله والامتناع عن معصيته، ومخالفة ذلك العهد نوع من أنواع الخيانة. والإكثار من المعاصي يُعتبر أيضًا

[1] صحيح البخاري 4499.

نوعًا من أنواع جحود النعم، لأن الشاكر للنعم والمُقدِّر لقيمتها لا يخالف أوامر المُنعِم لاسيما بهن. فمن كان خوانًا كفورًا أنى يتوقع أن يُدافع الله عنه، وما الذي يمنع الله من التخلي بالعهد الذي نقضه العبد؟

فما بالنا عن أحوال عبدٍ يسعى في الدنيا وقد تخلى عنه ربه في الدنيا والآخرة. ما مدى الضياع والتيهة والتخبط في الدنيا والآخرة لذاك العبد، علمًا بأن حياتنا تسري بستر من الله؟ ودون ذلك الستر ما كان للمرء أن يسلم من كثير من الأضرار التي قد تصيب دينه وبدنه وكرامته ومصالحه، ولا يتم له الرضا في الحياة. واعلموا أن من نقض العهد مع الله فقد جعل الله في حِلّ من التمسك بالعهد، ولا يلومن العبد إلا نفسه عندما يصيبه أيما يصيبه.

ومثال لمن بلغ من المنزلة أن الله يدافع عنه، بل وقد بلغ ما بلغ عند الله من قدرٍ في الآخرة أيضا، هو سيدنا ابن مسعود (رضي الله عنه). يُروى أن سيدنا عبد الله بن مسعود كان يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنْ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ فَجَعَلَتْ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مِمَّ تَضْحَكُونَ؟" قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ"[1] (يَجْتَنِي أي يجمع؛ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ أي ساقيه رفيعتان؛ تَكْفَؤُهُ أي تقلبه). والمعنى أن ساقيه أثقل في الميزان من جبل أُحُد الذي بجانب المدينة المنورة. فما الذي جعل سيدنا ابن مسعود يبلغ حد أن الله يُدافع عنه حتى من سخرية الناس منه، بل وعن طريق رسوله –سيد المخلوقين– (صلى الله عليه وسلم)؟!

هو الذي جمع القرآن حتى إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أوصى الصحابة أنه أحد أربعة أشخاص يستَقرِئون القرآن منهم، وهو أول صحابي جهر بالقرآن بين مشركي مكة عند الكعبة فناله ما ناله من اعتداءات. ولكن فيما يختص بثقل ساقيه عند الله، فالراجح أن ذلك يعود إلى أنه من أحد الصحابة الذين ثبتوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة حُنين عندما بدأ ينسحب كثير من المسلمين، فالجزاء من جنس العمل، والله أعلم. ويكفي لنا تشويقًا إلى حماية الله لعباده ما بيَّنه لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن عهد الله "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ"[2]. فما بالنا إذا بلغ أحدنا قدرًا عند الله لدرجة أن من يُعاديه فإن الله ينقلب عليه بالمُحاربة؟!

منع الله الشيطان من أن يكون له نفوذ على عباده. دل على هذا قول الله تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر 42]، فإن الله يأبى أن يترك الشيطان من أن تكون

[1] مسند أحمد 3792.

[2] صحيح البخاري 6021.

له سلطة على من أطاع الخالق. فتلك وقايةٌ من الله لعبادة من مكايد الشيطان، وإنما ما يحدث هو أن الشيطان قد يوسوس للعبد بعض الأفكار السيئة ولكن ذلك هو مبلغ نفوذه على المؤمن.

أما الشخص الضال، فإن الشيطان يكون له سلطان عليه دون الإجبار، لأن الشيطان لا يستطيع جبر الإنسان على أمر وإلا لن يكون هناك إثمٌ يقع على الإنسان. وذلك ما دل عليه كلام الشيطان في اليوم المهيب الذي ينطق الكذوب بالصدق {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم 22].

ولكن تتمثل سلطة الشيطان على الشخص الضال في أن وساوسه تكون في غاية الإغراء للعاصي –مُفصَّلة على قناعات هذا العاصي فتؤثر عليه تأثيرًا بالغًا–، ويُعيد ويزيد في الإلحاح –إذ إن الشيطان يُلازمه– حتى لا يرتاح ذلك العبد من الوساوس إلا بارتكاب المعصية. وإضافةً، فقد يُهيئ الشيطان له الأجواء للمعصية، مثل أن يزُجَّ عليه رجلًا ضالًّا آخر قد استولى شيطانه عليه فيُجرئان بعضهما على المعصية (كمن يمدحه مثلًا أو يصارحه برغبته في الإقدام على نفس الفعلة السيئة). ويظل يتفاقم الوضع تدريجيًّا بمجاوبة الشخص للشيطان أكثر إلى أن يكون العاصي بمنزلة المركب بالنسبة إلى الشيطان، فكل ما يوسوسه الشيطان يفعله، إذ لا يرفض للشيطان اقتراحًا بتلبية شهوة.

فتسلسل الأحداث يبدأ عندما يُعرض شخص عن الله، فيرفع الله تلك الوقاية عنه فلا يكون هناك حاجز بين هذا الشخص والشيطان. بل إن الشيطان يُحبه إذ إن المرء قد فتح له بابًا لإغوائه، وأيضًا قد أبدى للشيطان أنه يريد الابتعاد عن ربه بلسان الحال، وهذه أكبر أمنية للشيطان من الإنسان في الأصل. من ثمَّ يكون الشيطان قرين ذلك الضال حتى يغويه ويُضله ويسوقه إلى الخلود في النار {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف 175]. وقد سبق ذكر عواقب اتخاذ الشيطان للمرء قرينًا وملازمًا له في جزء: المعاصي: تبعاتها وآثارها.

انصباب الرزق صبًّا على التقي

في إطار ما مررت به ورؤيتي المحدودة، وجدت أن ما من طريقة أكثر فعالية في جلب الرزق الحلال من تقوى الله، وخاصة بترك ما حرم الله عن عدم ترك ما أوجبه الله، بالرغم من ضرورة الاثنين، وهذا فيما يختص بمسألة الرزق. وكون أن تقوى الله بالتأكيد تجلب الرزق من عند الله مذكور في عدة آيات مثل {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق 2–3، جزء من الآيات].

ولكن يجب التشديد على أن الاستغفار أيضًا يجلب الرزق، وهناك أدلة كثيرة على ذلك تم ذكرها في هذا الكتاب، مثل قول سيدنا نوح (عليه السلام) {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [نوح 10-12]. وقال سيدنا العباس بن عبد المُطلب (رضي الله عنه): اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِل بَلاء إِلا بِذَنْبٍ، وَلَمْ يُكْشَف إِلا بِتَوْبَةٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْم بِي إِلَيْك لِمَكَانِي مِنْ نَبِيّك، وَهَذِهِ أَيْدِينَا إِلَيْك بِالذُّنُوبِ وَنَوَاصِينَا إِلَيْك بِالتَّوْبَةِ فَاسْقِنَا الْغَيْث؛ فَأَرْخَتْ السَّمَاء مِثْل الْجِبَال حَتَّى أَخْصَبَتْ الأَرْض، وَعَاشَ النَّاس[1]. وهناك أدلة أخرى تم ذكرها في الكتاب لن تذكر هنا تجنبًا للإعادة.

لكن ينبغي التوضيح أن التقوى أثمر في جلب الرزق من الاستغفار، لأن حالة الاستغفار هي خطأ ارتُكب ثُم يُسعى في إصلاحه ويُطلب محوه، حتى يكون العبد كأنه لم يرتكبه. هذا بينما بالتقوى يكون العبد لم يرتكبه حقيقةً.

تحقيق الشفاعة في المُحسنين

هناك عدة شفاعات تكون للمرء عندما ينتقل إلى الآخرة، منها ما يكون من الملائكة كما في قول الله تعالى {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى} [النجم 26]. ومنها ما يكون من الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما دلت الأحاديث أنه يقدم أمته وأنه يقول "اللهم سلم سلم"، ويُلح على الله أن يُخرج مَن بقي مِن المسلمين في النار. وهناك شفاعة من الناس الذين في الدنيا إلى من انتقل إلى الآخرة، كما سيأتي ذكره إن شاء الله.

والمشكلة أن المرء قد يحرم نفسه تلك الشفاعات من شدة قبح أعماله، مثلما أن المسيء يُحرَم من الشرب من حوض الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، وتلك خسارة فادحة. أما من يتقي الله، فيطيعه ويتفادى معاصيه، فذلك الذي يرضى عنه الله، فيأذن في أن يُشفع فيه، فيقبل الشفاعة من الناس والملائكة والرسول (صلى الله عليه وسلم). وهذا ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلا شَفَّعَهُمْ اللَّهُ فِيهِ"[2].

فمن آثار المعاصي أنها تجلب كره الناس للعاصي بسبب ظلمه وأذاه وفساده في الأرض، وبسبب أن الله يضع له البغضاء في الأرض فيبغضه الناس عامة، ويتجنبه المؤمنون أيضًا نظرًا لفساده لئلا يُعْدَوا بأخلاقه وتصرفاته وفِكرِه. فمثل هذا الرجل، وإن صلى عليه الكثير ممن لهم مصالح

[1] فتح الباري لابن حجر العسقلاني 497/2.

[2] صحيح مسلم 1577.

منه، لا يُصلّي عليه كثير ممن ارتقى إيمانهم. أما التقي فيحبه الناس لعدله، وبسبب القَبول في وجهه الذي يَهَبَه الله لمن يُرضى الله ولو بسخط الناس، فيتقرب إليه الإخوة في الله، الذين يجتمعون في الله ويعينون بعضهم على الخير، وبالطبع هذا يشمل الصلاة على بعضهم والدعاء لإخوانهم.

إضافة إلى هذا، الذي يرحم الناس أولى برحمة الله من الذي لا يرحم الناس. ومن البديهي أن الشخص الطيب الذي يرحم الناس يُصلي عليه أناس صالحون أكثر، ولذلك جعل الله هذا بابًا من أبواب الفرص للمحسنين أن ينجوا من عذاب الله. وعلى الصعيد الآخر نتساءل، ما الذي يحمل رب الناس على أن يرحم مَن لا يرحم عباده الذين خلقهم؟ ومن المعلوم أن ظُلم الناس نوع من أنواع عصيان الله، فلماذا العصيان؟ أمن أجل لحظات من المتعة أو تحصيل لدنيا لا تقارن بشيءٍ من متاع الآخرة، والتي تجلب بُغض الناس بعد سخط الله؟

وكما جاء في حديث آخر عن سيدنا أنس (رضي الله عنه) حيث يروي: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَجَبَتْ"، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ "وَجَبَتْ"، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ "هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ"[1]. فإني أوصي نفسي قبلكم بتقوى الله، وانتقاء الأصحاب في الدنيا، الذين يعينون بعضهم بعضًا على طاعة الله وعلى تجنب معصية الله، ويهتمون نجاة بعض.

وبالصحبة الصالحة تكون هناك منافع مُضَاعفة، وفي الدنيا والآخرة، للذي ينصح والذي يُنصَح، فالعمل الصالح من أحدهم قد يؤجر عليه جميعهم، مكاسب على مكاسب. ففي الدنيا مثلًا يكون عن طريق أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بينهم، فيتجنبون الإضرار بأنفسهم ومَن حولهم. وبالطبع، لهم في الآخرة ثواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبما أنهم يُصَلُّون على بعضهم بعضًا عندما يفارقهم أحد، فهناك احتمالٌ عظيمٌ –خاصة إذا كان عدد من يشفع قد كبر– أن يقبل الله شفاعتهم للمتوفَّى فلا يدخل النار، فتتحقق المنفعة الكبرى في الآخرة أيضا كما تم ذكره.

وشفاعتهم لأحدٍ منهم تأتي بثمارها، ولكن لا يُشترط أن تتحقق قبل معاقبته جُزئيًّا، بل ربما بعد دخوله النار إذا بالغ في سيئاته. وذلك ما دل عليه (جزء من) حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد أن ينجو المؤمنين بعبور جسر جهنم "فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ –قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ– مِنْ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ

[1] صحيح البخاري 1278.

فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا؛ ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا؛ ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا" قَالَ أَبُو سَعِيدٍ (رضي الله عنه): فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}؛ "فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمْ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ"[1] (فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ أي أن المؤمنين يكونون أشد مناشدة وطلبا من الله في شفاعتهم لإخوانهم من النار عما كانوا عليه في طلبهم الحق من الله في الدنيا، وفي هذا بيان على شدة إلحاح وتضرع وإصرار المؤمنين في شفاعتهم مع الله لإخوانهم).

وفي صحيح مسلم جاءت رواية أخرى "حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ، وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ؛ فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا"[2]. فطوبى لمن آمن وغَمَر نفسه بين المؤمنين، فعرفوه وألِفُوه فيشهدون له أنه مثلهم ومنهم.

وهنا أضيف ذكر باب شفاعة آخَر لم أذكره في أول الباب، هو أوسعهم سعةً وأعظمهم فاعلية للمسلمين من شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والملائكة والمؤمنين، ألا وهو باب شفاعة الله، كما تبين في الحديث " فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي". هذا مع العلم أن أي شفاعة تصدر من مخلوقات الله لعبدٍ فهي في الواقع شفاعة الله لعبده، إذ إنه تعالى يُوفِّق مخلوقاته للشفاعة لعبده، ثم يتقبلها منهم، فإن لم يتقبلها فلا تأثيرٌ لها! فشفاعة الله تُنقذ أو تُخرج من النار من لم يستوفِ قضاء ما عليه من حقوق، ولولا أن الله شفع لهم لمكثوا في النار أكثر أو حتى للأبد إذ إن منهم من لم يُقدِّم لله عملًا إلا شهادة التوحيد.

وبحسب درجة المُسلم من التقوى (فأدناها هي أن يُسلم المرء، ويعلوها درجة الإيمان، ويعلوهما درجة الإحسان) يكون نصيبه من الشافعين له. فكلما ارتقى نال شريحة أكبر من الشافعين،

---

[1] صحيح البخاري 6886.

[2] صحيح مسلم 269، جزء من الحديث.

ويتقبل الله شفاعات أكثر، وهذا ما يبدو من الحديث "ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الصِّدِّيقِينَ، فَيَشْفَعُونَ؛ ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الْأَنْبِيَاءَ، فَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالسِّتَّةُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ ثُمَّ يُقَالُ: ادْعُوا الشُّهَدَاءَ، فَيَشْفَعُونَ لِمَنْ أَرَادُوا؛ فَإِذَا فَعَلَتْ الشُّهَدَاءُ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، أَدْخِلُوا جَنَّتِي مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا"[1].

ويُضاف إلى ذلك شهادات الإخوة الصالحين لبعض أمام الله على فعل الخيرات، وربما حتى الثناء على بعضهم، فتزداد رحمة وعفو وحسن استقبال الله لأفراد الصحبة الصالحة. فعندما أفارق الحياة، لا شك أني أريد أن يكون أصحابي ممن يحبهم الله فأُحشر معهم، وهذا لا يحدث إلا إن صاحبتهم في الدنيا وكنت منهم وفيهم.

تجاوز ربنا عن سيئ الأعمال يوم القيامة، بل وقد يُبدِلهن حسنات!

قال تعالى عن الذين صدَّقوا برسالة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) {لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الزمر 35]، فمن منا لا يرغب أن يسقط عنه أسوأ وأقبح وأخجل أفعاله يوم القيامة، فيُحاسَب فقط على الصغائر؟ وهذا معاكسٌ تمامًا لما ينتظر الكافر، قد أعدَّه الله له مكرًا به {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [فصلت 27].

بل وقد بشَّرَنا الله بما هو أفضل من ذلك، فقد وسعت رحمته وعفوه إلى درجة أنه قد يعفو عن كل ذنوب، أي الأسوأ والأخف (الكبائر والصغائر)، بل وسيجزيه على مستوى أفضل الأعمال التي عملها ذلك العبد. تلك المرتبة تكون للمؤمن إذا أصلح العمل {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [العنكبوت 7].

وهذا هو السبيل للتخلص من ماضٍ كان مليئًا بالمعاصي، بزيادة الإيمان والعمل الصالح (والتوبة صنفٌ من الأعمال الصالحة). وقد جاء في آية أخرى {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود 114]، وقد أوضح لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك في حديث وهو يوصي سيدنا أبا ذر (رضي الله عنه) "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"[2].

فإذا أردت دفن ماضيك لأنه يُخجلك ولا ترضى عنه بسبب كثرة معصيتك لله فيه، فعليك بتلك الوصية. بل وقد بشَّرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن التائب من الذنب يكون وضعه شبيهًا

[1] مسند أحمد 15.

[2] سنن الترمذي 1910.

بالذي لم يرتكبه في المقام الأول "التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ"[1]، ولكن ينبغي التأكيد على أن التوبة يجب أن تكون خالصةً صادقةً مستوفية لشروطها.

ومن هاتين الآيتين نستطيع أن نستنتج أيضًا أن المرء مهما بلغ من الإيمان فهو لن يزال يقع في المعصية، مع اختلاف الكم والنوع وزمن مكوثه فيها بين شخص إلى آخر، وهذا بحسب درجة الإيمان. والمهم أن العمل الصالح يكون أكثر من المعاصي بحيث إنه يَجُب المؤاخذة عليها، مع الإكثار من الاستغفار مع التوبة. هذا ومع العلم أن العبد ليس من يُقدِّر عمله الصالح وعمله المُفسد، لأن هوى المرء يحمله على سوء تقدير الموازين بتضخيم عمله الصالح وتقليل شأن عمله الفاسد، ولكن المقصود عندما يُعد صالحًا عند الله.

فإذا بلغ العبد تلك المنزلة عند الله فطوبى له، وجزاؤه أن الله يمحو أثر سيئاته ويجزيه بأحسن ما قدّمه! {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [الأحقاف 15-16].

بل وأكثر من ذلك، فإن الله قد لا يتجاوز فحسب ولكن قد يُبدل مكان كل سيئةٍ حسنة {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان 70]. فأي كرم هذا؟ ومن الذي لا يسعى لاغتنام هذا الكرم؟ ولعل بحسب جودة العمل الصالح من العبد أو قلبه تكون مرتبة الجزاء، بدا أنه يُمحى للمرء أسوأ أعماله، مرورًا بأنه قد تُمحى فيها كل السيئات، إلى أن قد يبلغ تبديل سيئاته حسنات، والله أعلم.

فما علينا إلا الإيمان بالله وحده لا شريك له وترك عصيانه، مما يقود المرء إلى العمل الصالح تلقائيًّا (ولكن الاجتهاد فوق ذلك للاستزادة من العمل الصالح يقود إلى مرتبة الإحسان). بهذا، يكون المرء ممن شملهم الله في قوله {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التغابن 9]. من تشملهم هذه الآية هم الذين كان مجمل أعمالهم صالحًا، فاحرص أخي على العمل الصالح، والتوبة إذا وقعت في الذنب. هكذا تُعلي رصيدك عند الله، لأنه يُثبِّت لك الصالح من أعمالك ويمحو عنك أغلب الذنوب، فعندما يُحصى لك جُملة عملك تجده طيبًا.

[1] سنن ابن ماجه 4240 (مرفوع منقطع)، وصححه ابن باز في مسائل الإمام، وحسَّنه ابن حجر والألباني لشواهده.

الطمأنينة والبشرى في شتى مراحل الآخرة

إن الله قد أثنى على الذين يتّقونه وخصّهم بالذكر عند التبشير بالجنة في عدة آيات، وعلينا ملاحظة المواطن التي يُذكر فيهن المتقين أو صفة التقوى في القرآن عامةً، فقد قال تعالى {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران 76]. وذكرهم الله خاصة في كيفية الفوز بالجنة ونيل منازل متميزة فيها {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ} [النحل 30-31]، {وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف 35]، {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [القلم 34]. وقد قال الله إنه ولي المتقين بوجهٍ عام، ومن ثمَّ يتولى مصالحهم فلا خوف عليهم {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس 61-62].

وواقعيًّا، أي عند المُعاصرة، للطمأنينة يوم القيامة قيمة لا تُقدَّر بثمن، ولا يُضاهيها سعادة مر بها العبد من قبل، وذلك لأن العبد يرتاح بالبشرى المُسبقة أنه مُقبل على رضوان من الله، وأنه قد نجى حيث قد هلكت أُممٌ غيره في ذلك اليوم العصيب. قال تعالى {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر 27-30]. ما أحسن أن يمشي الإنسان مطمئنًا يوم يفزع فيه كل الناس، يومٌ يغضب الله فيه غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله؟

بلا شك أن كلنا سنفزع يوم القيامة، ولكن هناك مؤمنون بلغوا منزلة عالية عند الله لدرجة أنه يُطَمئِنهم في الأوقات العصيبة. والأدلة على طمأنة المؤمن في شتى مراحل البعث كثيرة في القرآن والسنة، مثل {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [النمل 89]؛ {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل 32]. وقال تعالى {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [الأنبياء 103]، وهذه الطمأنينة من الفزع تكون حين يؤمر بأصحاب النار إلى النار، ثم تتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة بترحاب. وقيل إن الملائكة تتلقاهم عندما يخرجون من القبر، ولكن ليس هناك ما يمنع من حدوث الاثنين.

فتخيل أخي مثلًا أن من لحظة بعثك من قبرك تجد ملكًا بشوش الوجه يبتسم إليك ويُسلِّم عليك، فتسأله من هو، فيقول شيئًا نحو: أنا ملكٌ أمرني ربي أن أُلازمك حتى تصل الجنة. فيُرافقك في مختلف المراحل، يُرشدك ويحميك وهو يُكلمك بطريقة هادئة وودودة، فيُدخلك على حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين الزحام، ويسحبك سريعًا على جسر جهنم، وغير هذا.

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) جاء "إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ؛ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيّ السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ (يَعْنِي بِهَا) عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ؛ فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي"[1].

وفي حديث قدسي جاء "قال اللهُ عزَّ وجلَّ: وعزَّتي لا أَجْمَعُ لعبدي أَمْنَيْنِ ولا خَوْفَيْنِ، إنْ هو أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُهُ يومَ أَجْمَعُ فيهِ عبادِي، وإنْ هو خَافَنِي في الدنيا أَمَّنْتُهُ يومَ أَجْمَعُ فيهِ عِبادِي"[2]. وفي (جزء من) رواية أخرى للرسول صلى الله عليه وسلم "الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ؛ فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ؛ فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ"[3].

---

[1] مسند أحمد 17803، جزء من الحديث.

[2] السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني 742.

[3] سنن ابن ماجه 4252.

فقل لي أيها القارئ، كم تساوي تلك الطمأنينة في شتى مراحل الآخرة، ما بين الموت والقبر والبعث ودنو الشمس من الأرض والحساب ورؤية جهنم والمرور على جسر جهنم وغير ذلك؟ ما قدر سماع المرء قول الملائكة له "وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ" في يوم قد غضب فيه الله ما لا، ولن، يغضب غضبًا مثله أبدًا.

فقد طلب منا الله طلبًا هينًا مقابل ذلك، والحمد لله الذي يقبل منا القليل ويجازي عليه بالجزيل، أن نعبده وحده ونتجنب معصيته، أفلم يأن أن أُلبي؟ ولكنهما هوى النفس ووساوس الشيطان، فوجب الصبر على مجاهدتهما باستمرار إلى أن نلقى الله ونأخذ مكافأتنا منه على ذلك. وإلينا بعض الأمثلة:

الطمأنينة عند الموت. قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [فصلت 30-31]. هذا من ضمن خير الجزاء الذي يكون لمن استقام، أن تتنزل عليه الملائكة (عند الموت أو عند قيامهم من القبور أو في الآخرة، بحسب قول المفسرين) فيقولون له ما قالوا. فلماذا أتخلى عن أن يستقبلونني هكذا بعصياني الله؟

بالمعاصي لن أطمئن ولن أبتهج ولن أُبشَّر بالجنة عند موتي، فهل من المنطق أن تكون الملائكة أولياء للعصاة في الآخرة بأن يتولوا سلامتهم؟ والله لمعهم حق أن يتخلوا عن من عصى ربهم. وبالمعاصي قد بدّلت ذلك التبشير والفضل باللوم والخزي، ولا ألومن إلا نفسي لأنه لم يكن لأحد سلطةٌ جبريةٌ عليَّ في الواقع.

والعبد التقي يكون مطمئنًا -نسبيًّا إلى من سواه من العصاة والمنافقين والكفار- عند حضور أجله، إذ يكون أكثر سكينة لأنه سعى في الأعمال الصالحة وتفادى المعاصي، فيكون باله مرتاحًا إلى حد كبير، واجتهد قدر استطاعته. ولا ننسى بالطبع أن التقي يريد الانتقال من الدنيا إذ هي سجنٌ له عن شهواته، وكلها مشقة وظُلمٌ وأردى درجات المتاع، ويشتاق إلى ملاقاة ربه وأخذ خير الجزاء منه في دار المتعة الحقيقية والراحة.

قد بلغ من الصحابة أنهم كانوا يُرحِّبون بالموت، بل ويبحثون عنه عن طريق الشهادة. فها هو سيدنا بلال، بعد كل ما مر به من تعذيب قريش له ومشقة حمل مسؤولية هذا الدين، الذي حمله حمل الرجال، قال عندما حضر أجله: غَدًا نَلْقَى الأَحِبَّةَ، مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ؛ وتقول امرأته: وَا وَيْلاهْ، فَقَالَ:

وَافَرَحَاهُ![1]. وقال سيدنا حذيفة (رضي الله عنه) في مرضه الذي توفي فيه: حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، أَلا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ، أَلَيْسَ بَعْدَ مَا أَعْلَمُ مِنْ الْيَقِينِ[2]. فطوبى لهم.

البشرى في القبر. إن العبد إذا دخل القبر يأتيه ملكان يُجلِسانه، معهما مطرقة عظيمة، فيسألونه من هو ربه، وما دينه، وماذا يقول عن الرسول (صلى الله عليه وسلم). هذا الموقف وحده قد يُذهِب بالعقل فزعًا، وهذه آخر فتنة يتعرَّض لها المؤمن، ولكن يُثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيُحسِن المؤمن الإجابة. وليس هذا فحسب، بل إن الله يُنزل السكينة والطمأنينة على العبد الصالح، فلا يصيبه الفزع ولا الرعب بالرغم من شدة الموقف. كل هذا بخلاف وضع من أساء العمل.

وهذا منصوص عليه في حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ وَلَا مَشْعُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ. فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ. فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ. فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ؛ ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ. وَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فِي قَبْرِهِ فَزِعًا مَشْعُوفًا، فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي. فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُهُ. فَيُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ؛ ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى"[3] (مَشْعُوفٍ أي شدة الفزع التي تُذهب بالقلب).

بل ويُرحِّب به القبر ويُبشِّره بالخير، كما نبأنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "فَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، أَمَا إِنْ كُنْتَ لَأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ. فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ"[4]. فمن منا يرغب في أن يُستقبل هكذا؟

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي 359/1.

[2] المصنف لعبد الله بن أبي شيبة 606/8.

[3] سنن ابن ماجه 4258.

[4] سنن الترمذي 2384.

السلام والسكينة عند البعث يوم القيامة. جاء في كتاب الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [الأحزاب 41-44]. قال القرطبي (رحمه الله) في تفسيره: اختلف في الضمير الذي في "يَلْقَوْنَهُ" على من يعود، فقيل على الله تعالى، أي كان بالمؤمنين رحيمًا، فهو يؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة. وفي ذلك اليوم يلقونه. و"تَحِيَّتُهُمْ" أي تحية بعضهم لبعض.

"سَلَامٌ" أي سلامة لنا ولكم من عذاب الله. وقيل: هذه التحية من الله تعالى، المعنى: فيسلمهم من الآفات، أو يبشرهم بالأمن من المخافات "يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ" أي يوم القيامة بعد دخول الجنة. قال معناه الزجاج واستشهد بقوله جل وعز: "وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ" [يونس:10] وقيل: يوم يلقونه أي يوم يلقون ملك الموت، وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلَّم عليه. روي عن البراء بن عازب قال: "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ" فيُسلِّم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يُسلِّم عليه (انتهى).

وقد تكلمنا كيف أن ملك الموت يُبشِّر المؤمن برضوان من الله عندما يلقاه، وقبل قبض روحه حتى يطمئن، وهنا -كما تم تفسيره- أنه يُسلِّم على المؤمن. فكما رأينا، اختلف أهل العلم في مَن الذي يُقرئ ومتى يُقرئ السلام، ولكن أسألكم: هل هي كبيرة على كرم الله أن المؤمن يُحَيَّى بالسلام من الله ومن جميع الملائكة وبين المؤمنين بعضهم بعضًا في جميع مراحل الآخرة لطمأنينته؟ ما قيمة أن يقال لنا في يوم الأهوال {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [الزخرف 68]. ألا هلم بنا إلى ذلك التكريم؟

الطمأنينة بالسماح للشرب من حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم). إن المسلم يُتاح له التخفيف يوم القيامة بالمميزات التي يُقدمها لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، مثل الشفاعة التي ينالها من يشهد أن لا إله إلا الله بإخلاص. قد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ"[1]. ولعل يستحقها المرء أكثر وتأثرها يكون أبلغ إذا أكثر من الصلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطلب له الرفعة من الله. فمما نبأنا به (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ "اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ" حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2] (يَسْمَعُ النِّدَاءَ أي الأذان للصلاة).

---

[1] صحيح البخاري 6085.

[2] صحيح البخاري 579.

ومن تلك المميزات هي شرب المسلمين من حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليرتووا، يوم نظمأ جميعًا بسبب اقتراب الشمس من الأرض. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؛ فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي"[1] (فَرَطُكُمْ أي يسبق ويتقدم؛ وَلَيَرِدَنَّ أي يُقبل أو يأتي؛ يُحَالُ أي يُحجَز؛ سُحْقًا سُحْقًا أي بُعدًا بُعدًا). وفي جزء من رواية أخرى جاء "وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ أَلا هَلُمَّ؟ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا"[2] (لَيُذَادَنَّ أي يُدفع ويُمنع؛ هَلُمَّ أي أقبل أو أحضر).

وهذا يعني أن من يشرب من حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالقطع يكون قد اتَّبع سنَّتَه. أليست تلك بشارة وطمأنينة إذا لمن يشرب من الحوض أنه لم يضل في الدنيا؟

إنه ليُسرى عن المؤمن في طول مدة يوم القيامة وشدَّته. قيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن اليوم الذي مقداره خمسين ألف سَنَةٍ: مَا أَطْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِيَّ الدُّنْيَا"[3]. وهذا من ضمن ما يُخفف عن المؤمن من مشقات يوم القيامة، كما خُفِفَّ عليه في أثناء سحب روحه من جسده، وفي قبره بالتوسيع عليه.

وهناك فرصةٌ كبيرةٌ أن يُخفف عليه أيضًا بالظل من الشمس يوم القيامة، إذ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ 'إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ'، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[4]. والمؤمن قطعًا يوشك أن يصيب على الأقل واحدة من هذه الصفات: أن يكون قلبه مُعلقًا بالمساجد، أو يكون له صديق يُحبه في الله، أو تصدَّق صدقةً خفية، أو فاضت عيناه من ذكر الله ولو مرةً.

---

[1] صحيح مسلم 4243.

[2] صحيح مسلم 367.

[3] مسند أحمد 11292. صححه ابن حبان ولكن ضعفه الألباني والأرناؤوط.

[4] صحيح البخاري 1334.

ومن التخفيف هو العرض اليسير في الحساب أمام الله، أي دون أن يُناقَش تفصيليًّا في أعماله، وبتجاوز الله عن الذنوب، والسرعة في المرور على جسر جهنم، وغير ذلك مما نعلمه ولا يتسع المجال لذكره. ومن المؤكد أن هناك غير ذلك يعلمه الله ولكنه لم يُنبئنا به، ولم يخطر ببالنا نحن.

الطمأنينة يوم القيامة بالنور من الله مع التبشير بالجنة. قال تعالى {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُورا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحديد 12-15].

النور الذي لا ينطفئ يوم القيامة طمأنينة للمؤمنين، لأنه يدل على مدى حب الله لهم بإعطائهم إياه. هذا اليوم، يأتي المنافقون والذين استهزأوا وسخروا من المتمسكين بدين الله يقولون لهم، بعدما ينطفئ نورهم، انظرونا نقتبس من نوركم. وهذا النور غاية في الأهمية، إذ يستطيع المؤمن أن يرى أين يضع خطوته التالية، خاصة على جسر جهنم!

سبحان الله على انقلاب الموازين. هذا هو اليوم الذي تتحول جنة الكافر -وهي الدنيا- إلى عذاب، فهي محسوبة عليهم، ويتحول سجن المؤمن -الدنيا- إلى نعيم وراحة وطمأنينة. حقًّا، قد أكرمهم الله بما صبروا في الدنيا.

بل وقبل أن يُعطي اللهُ للمسلمين نورًا، حين تتَّبع كل أمة قائدها الذي كانت تعبده، ما بين الوثن والصليب والبقرة والهرّة والقرد والشيطان والشمس وداعٍ كذّاب وغير ذلك، فيقودهم إلى النار، ولكن يَثبُت المؤمنون مُفارقين كل تلك الفرق وهم في أمسّ الحاجة إلى الله كي يُنَجّيهم، ينتظرونه، فما البُشرى التي تحدث؟ يقول سيدنا جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) في جزء من روايته عن أحداث يوم القيامة: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا؛ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ؛ فَيَقُولُونَ: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ. فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ، فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ[1]. فتخيلوا هذا الوضع، وقيّموا قيمته وحده.

[1] صحيح مسلم 278؛ الحديث موقوف عند سيدنا جابر.

البشرى باشتمام رائحة الحنة. هناك أناس لا يلتقطون رائحة الجنة يوم القيامة، وهم ما بين كافر ومُشرك ومنافق، أو حتى مسلم بلغ ما يبلغ من العصيان. فمن أمثلة المسلمين الذين لا يلتقطون رائحة الجنة ما ذكره سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "لَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ فَتَجِدَ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"[1] (غَيْرِ كُنْهِهِ أي بغير حقيقة أو سبب قوي، وقيل أي في غير وقته وقدره وغايته)؛ "مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ"[2] (يَرِحْ أي يَشُم)؛ "مَنْ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً فَلَمْ يُحِطْهُمْ بِنَصِيحَةٍ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَرِيحُهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ"[3]. ملحوظة: اختلاف الروايات حول مدى بلوغ عطر الجنة لا يمنع أن تكون على أقصى ما ذُكِر، وهي مسيرة خمسمائة عام، ولكن لعل ذكر مسافات مختلفة هو من باب الإشارة إلى مدى قبح العمل، والله أعلم.

من ثَمَّ، نستطيع أن نستنتج أن من يشم رائحة الجنة يوم القيامة يكون قد كُتب له أنه من أصحاب الجنة على الأرجح، بما أن هناك فئة من المسلمين (دون النظر إلى غير المسلمين) لا يُمكَّنون من شم هذه الرائحة الزكية الجميلة كعقاب لهم. فمن يستطيع شم رائحة الجنة يوم القيامة من قبل أن يرى الجنة تكون بشارة كبيرة له وطمأنينة أنه من أصحاب الجنة، وهذا بينما أهوال القيامة ما زالت تقع، فلا يُقلل من شأن أو يتهاون أحدنا بهذا العامل.

التباهي عند استلام كتاب الأعمال المُتطاير. {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ} [الحاقة 19]. تلك فرحة من يُسَلَّم كتابه في يده اليُمنى، ما يلبث أن يفرح فرحًا شديدًا بذلك أمام الملائكة والناس لأنها بشرى له في أن عمله الصالح فاق عمله الفاسد. وذلك بخلاف وضع من يؤتى كتابه في شماله {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} [الحاقة 25-29].

من كلام ذلك الفرد الضال، يتبين لنا حاله من شدة الخوف والإحساس بالضياع والهلاك، حتى إنه يتمنى أنه لم يؤت كتابه، وهي أدنى مراحل التهرب من مصيره. ثم يتمنى أنه لم يعِ حسابه، ثم يتمنى أنه قُضي عليه حين الموت وكانت نهايته فلا يُبعث، ثم يتحسر ويلوم نفسه لأنه يُدرك أنه

---

[1] سنن ابن ماجه 2044، ولكن ضعَّفه الشيخ الألباني.

[2] سنن ابن ماجه 2601.

[3] مسند أحمد 19428.

موفًّى حسابه لا محالة ولا مهرب من ذلك. من أجل ماذا إذا قد استبدل البهجة والبشرى بتلك الحسرة وتأنيب النفس يوم لا جدوى من ذلك؟

لماذا المعاناة؟ قال عز وجل {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى} [النازعات 34-35]. من شدة الأهوال التي يراها الإنسان يوم القيامة، تبدأ النُظُم الحفاظية في جسده هي التي تسيطر على الجسد بسبب شدة الخوف، فينشط العقل كما لم ينشط من قبل فيتذكر ما سعى كله، خيره وشره من الأعمال. فانظر أخي لهذا اليوم وتفكر، وإنما ذُكِرَت لمحة من حالنا في ذلك اليوم. فكيف لا أستعد ليومٍ مثل هذا؟

ومما لا شك فيه هو أن منذ لحظة بعثي، بل ربما من لحظة موتي، سأبدأ ألوم نفسي من قبل أن يبدأ الحساب حتى، قائلًا لنفسي "لماذا فعلت كذا، ولماذا فعلت كذا، ولماذا لم أفعل كذا بدلًا من كذا وكذا"، أُعاتب نفسي وأقسو عليها. فلماذا أضع نفسي في تلك المعاناة بالصراع معها، وأن أُحَمِّل على نفسي؟ لماذا لا أبدأ بالإصلاح من الآن، ولا أقول غدًا؟ إذا كانت المعاناة لا بد منها، فالدنيا أولى بها.

وختامًا لهذا الباب، قل لي أيها القارئ، أي مصير تريده وأي استقبالٍ تودّه من الملائكة في مراحل انتقالك من هذه الدنيا إلى يوم الحساب؟ اختر من بين ما وصفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ (رضي الله عنه) قَائلًا: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْقَبْرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ" ثَلاثَ مِرَارٍ. ثُمَّ قَالَ "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمْ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى؛ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الإِسْلامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الإِسْلامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ. ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ

حَسَنُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنْ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللَّهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا؛ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ الْجَنَّةِ وَبَابٌ مِنْ النَّارِ فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ، أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشِّعْبِ مِنْ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إلا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ لا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ؛ فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ فُلانُ بْنُ فُلانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى؛ فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَوْتَ؛ وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنْ اللَّهِ وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِالشَّرِّ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا؛ ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إلا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ النَّارِ وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ"[1].

في معاني الحديث: يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ أي تمر من جهتهم، اشتياقًا من الملائكة أن تمر الروح الطيبة قريبًا منهم، وهذا بخلاف الروح الخبيثة التي يدعون الله ألا يُعرج بها بجانبهم، وذلك من شدة نتنها؛ ولا تَلَوْتَ أي قصَّرت فلا قرأت ولا تدبرت القرآن الذي فيه الأخبار، فلم تتبع الراشدين. السَّفُّودُ هي الحديدة ذات شعب منحنية، وهي كناية عن شدة تمسك الروح بالجسد حين انتزاعها، دلالة على شدة تعذيب تلك الروح حين استخراجها كالسفود كثير الشعب من الصوف المبتل؛ مِرْزَبَةٌ هي المِطرقة.

مرتبة خاصة للنساء دون الرجال

نقف وقفةً ونُبوب بابًا خاصًّا للنساء، وذلك لتمييز خاص ميَّزَهُن به الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله "الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ"[2]، وهذا الحديث أذكره للنساء خاصة بالرغم مما فيه من حكمة ومنفعة بالغة للرجال الذين يسعون للزواج. هنا يرشدنا النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أن الزوجة الصالحة هي خير متاع الدنيا، أي أمتع ما قد يوجد على الأرض، أكثر من الذهب والخيل والمال والسلطة والأنعام والحرث والجَنَّات، وأكثر من الذُرية حتى لأن المرأة

[1] مسند أحمد 17872، ضعفه الأرناؤوط بهذا اللفظ.

[2] صحيح مسلم 2668.

الصالحة أُنسٌ للرجل تُخفِّف عنه. وليست هذه المرتبة للرجل مهما صلح إذ لا يستطيع أن يُوفِّي شروطها.

فيا أيتها الأخت، لماذا لا تجتهدين أكثر لتصبحين خير متاع الحياة الدنيا؟ يا أيها الأخت، إن تركتِ المعاصي واتقيتِ الله تكوني قد بلغت قدرًا هائلًا من القيمة في الدنيا لا يضاهيها الرجل الصالح، بما أنك ستكونين أعلى ما في الدنيا من زينة وجمال. ضيفي إلى هذا أنك ستكونين كنزًا نظرًا لنُدرَتِكِ، إذ إن الرجال الصالحون أكثر من النساء الصالحات كما دل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ"[1] (الثَّرِيدِ هي وجبة من اللحم والخبز المُفتت).

وتفصيلًا عن كيفية كون المرأة الصالحة خير متاع الدنيا وكنزًا ثمينًا في الدنيا، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو ينصح سيدنا عمر (رضي الله عنه) "أَلَا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ؟ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ؛ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ"[2] (حفظته أي صانت نفسها وأولاده وبيته وماله له). بل وقد زاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) من شأنها وأعلى من قدرها أكثر، ففي رواية أخرى قال فيها "مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ؛ إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ"[3].

فالمرأة الصالحة تُعلي من منزلة الرجل في الآخرة إذ تحثه على طاعة الله، وقرة لعينه عندما ينظر إلى جمالها وخُلُقها، وعون له على عقبات الدنيا عندما تُطيعه، وطمأنينة له إذ تحفظه هو وما يملك، وراحة له إذ يسكن إليها، ورشد له إذ يستشيرها في أمور دينه ودنياه، وأُنس له إذ يُداعبها وتُداعبه وتتبادل معه الحكايات، فأي شيء في الدنيا قد يفوق ذلك؟! أيتها الأخت، لاحظي أن في الحديث قد وضع الله شتى أنواع متاع الدنيا في كفة، والمرأة الصالحة في الكفة الأُخرى، والنتيجة أن المرأة الصالحة هي التي علت في القدر والقيمة والمتعة فأطاحت بمتاع الدنيا كله! وانظري إن اجتهدتِ كم تكونين غالية، وتلك المنزلة في متناول يديك! وبما أنها في متناول يديك، فلم لا؟

هذه مرتبة خاصة للنساء في الدنيا أن يغتنمنها، وأما في الآخرة فلهن سبيلٌ خاصٌ وواضح ومضمون لدخول الجنة –بما أن الله وعد به– لمن يلتزمن به، ينلن به مرتبة خاصة أيضًا. فلهن مميزات خاصة في الدنيا والآخرة، وليس كما يدعي أعداء الإسلام أن المرأة مقهورة ومُهمَلة ومظلومة في الإسلام. هذا السبيل الخاص بالنساء لدخول الجنة، وبتكريمٍ مُخصص، قد بيَّنه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "إذا صلَّتِ المرأةُ خَمْسَها، وصامَت شهرَها، وحصَّنَتْ فرجَها، وأطاعَت

[1] صحيح البخاري 3159.

[2] سنن أبي داود 1417.

[3] سنن ابن ماجه 1847.

زوجَها، قيلَ لها: ادخُلي الجنَّةَ مِن أيِّ أبوابِ الجنَّةِ شِئتِ"[1]. أي إذا حافظت المرأة على صلوات الفريضة في وقتها، وصامت رمضان وقضت ما عليها منه لعذر، وحافظت على فرجها من غير زوجها، ولم تعصِ زوجها ما دام لم يأمرها بمعصية الله، فُتحت لها أبواب الجنة الثمانية لتدخل من أيهم شاءت.

وليس للرجال، فيما أعلمه، حديث خاص بهم يُشبه هذا فيما يعملونه ويُبلغهم تكريم وتشريف مثل هذا: أن يُفتح له أبواب الجنة الثمانية، ولكن هناك أعمال عامة لجميع المسلمين من يعمل بها يُدعى من الأبواب الثمانية، وذلك في الحديث الذي ذكرناه من قبل عندما سأل سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا كان هناك أحدٌ يُدعى من الأبواب الثمانية. فالمرأة، بترك العصيان، لها أن تكون أجمل شيء في الدنيا، ولها سبيل مضمون إلى الجنة وتكريم خاص في الآخرة أيضًا.

[1] صحيح الجامع للألباني 660.